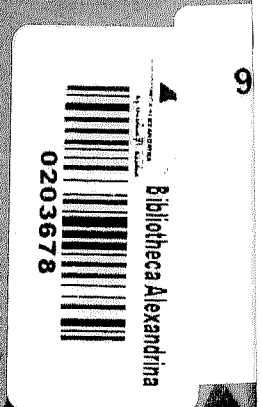


مجلد
سابع
مبادئ
سياسيا واقتصاديا

الدكتور
جمال الدين الشيبان
استاذ السابح الاصلاحى

مكتبة الثقافة الدينية



www.alkottob.com

مَجْلَد
تَارِيخِ كَمِيَاط

www.alkottob.com

١٠٠٠

أسرة حد/ جمال الدين الشيال
الإسكندرية

مَجْلَدُ تَارِيخِ مِصْرَاطَ

سياسيا واقتصاديا



General Organization of the Al-Qadisiya Library (GOAL)
www.alkottob.com

تأليف

الدكتور جمال الدين الشيبان
أستاذ التاريخ الإسلامي

الطبعة الأولى
١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م

الناشر

مكتبة الثقافة الدينية

٥٢٦ ش بورسعيد - الظاهر
ت : ٥٩٢٢٢٠ - فاكس : ٥٩٢٢٧٧

٣١١٥

حقوق الطبع والنشر محفوظة للناشر
مكتبة الثقافة الدينية

www.alkottob.com

كلمة المؤلف

دمياط وطني الأول، فيها ولدت، وبين ربوعها قضيت طفولتي الأولى، فلها في نفسي أجمل التذكريات.

وقد عانيت منذ نيف وعشر سنوات بكتابة تاريخ لها، فقرأت عنها الكثير، وجمعت أثناء قراءاتي مادة وفيرة، كنت أدخرها إلى أن يصفو الوقت، وأفرغ من مشاغلي، فأتوفر على كتابة هذا التاريخ، وكنت أطمع، بل أطمح أن أوفق لإخراج هذا التاريخ كاملاً مفصلاً؛ ولكن غرفة دمياط التجارية انتهزت فرصة قيام المعرض الزراعي الصناعي هذا العام وأرادت أن تقدم للناس مجمل يعرف الناس بهذه المدينة في عصورها المختلفة، وأحسنت الغرفة في الظن فكلفتني بكتابة هذا المجمل في وقت كانت تغمرني فيه شواغل العمل والحياة، ولكنني استجبت لرغبتها الكريمة. وبها أنلت أقدم هذا المجمل، وغاية ما أرجو أن أوفق في القريب إن شاء الله لتقديم تاريخ للمدينة كبير، أفصل فيه ما أجمل، وأوضح فيه ما تخمض، واستوفى فيه ما نقص، فإن لديمياط في نظري شواحي أخرى لا زالت تحتاج للتأريخ، وأهمها: التاريخ العثماني للمدينة.



ناحية من شاطئ دمياط

تاريخ المدينة السياسى

www.alkottob.com

دمياط في العصور القديمة

دمياط مدينة عريقة في القدم ، ذكرت في التوراة باسم (كفتور) ، وعرفت في العصر اليوناني باسم (تامياتس Tamiatis) وفي العصر القبطي باسم (تاميات Tamiat) (أو تامياتي Tamiaty) — ويقال إن معنى هذا اللفظ في اللغة المصرية القديمة : — الأرض الشمالية أو الأرض التي تنبت الكتان — ، ومع هذا فنحن لانكاد نجد لها ذكراً في المراجع القديمة ، وإنما تبدأ معرفتنا بها بعد الفتح الإسلامي لمصر .

ولعل السرفى نحموض تاريخها القديم أن فرع دمياط كان أقل فروع النيل السبعة القديمة أهمية ، وكان الفرع البلوزي الذي يصب في البحر عند مدينة بلوزيم — أو الفرما — أهم الفروع التي تمر بشرق الدلتا ؛ وأنه كان يجاور دمياط على شاطئ البحر الأبيض المتوسط مدينتان قديمتان ، لها مالها من سمات ومميزات ، وهما : مدينة تنيس ، ومدينة الفرما أو (بلوزيم Pelusium) ، فكل منهما كانت تشرف على البحر الأبيض المتوسط : الفرما عند نهاية الفرع البلوزي ، وتنيس عند نهاية نهر صغير كان يخرج من فرع دمياط ، ويسمى الفرع التنيسى .

وكان موقع هاتين المدينتين ممتازاً من الناحيتين الحربية والتجارية ، بل لعلهما كانتا تفوقان دمياط القديمة في هاتين الناحيتين ، فتنيس كانت جزيرة في الطرف الشرقى من البحيرة التي كانت تحمل اسمها (بحيرة تنيس أو المنزلة الحالية) ، كما كانت هي والفرما تقعان في نهاية خط مستقيم تقريباً يمتد عبره طريق قوافل صحراوى يصل بينهما وبين ميناء البحر الأحمر الهامة : القلزم (أو السويس الحالية) ، فكانت تجارات الشرق التي تصل إلى القلزم تحمل منها عبر هذا الطريق إلى الفرما حيث تحملها سفن البحر الأبيض المتوسط إلى سواحل الشام وآسيا الصغرى واليونان ، وهاتان المدينتان — إلى هذا كله — أقرب إلى هذه السواحل من دمياط .

دمياط في العصر العربي

الفتح العربي :

فاذا كان الفتح العربي (سنة ٥٢٠هـ - ٦٤٠هـ) فانا نجد هذه المدن الثلاث تقاوم مقاومة عنيفة ، فلا تخضع إلا بعد جهاد مرير ، ومعرفتنا بأخبار دمياط التفصيلية تبدأ بحوادث هذا الفتح ؛ فقد وجه الجيش العربي - بعد استيلائه على حصن بابلون - فرقا منه بقيادة البطل العربي المقداد بن الأسود لإخضاع مدن الشاطئ الشرقي ، وتقول الرواية العربية إن المدينة وقت الفتح كان يحيط بها سور قوي ، وإن جندها بقي يقاوم مدة طويلة داخل هذا السور، فلما طال الحصار جمع (الهاموك) - حاكم المدينة - أصحابه وشاورهم في الأمر ، فنصحه سوادهم بالتسليم ، ولكنه خالفهم وظل يقاوم ، وكان له ابن يسمى شطا ، فخرج إلى المسلمين في الليل ، ودلهم على عورات البلد ، فلم يشعر الهاموك إلا والمسلمون يكبرون على سور المدينة ويدخلونها. ثم سار الجيش العربي إلى تنيس ، فلقى من حصانة موقعها - كجزيرة تحيط بها المياه - ومن حاميتها نضالا أشد وأعنف ، وتعود الرواية العربية فتذكر أنه عندما اشتد النضال للاستيلاء على تنيس تقدم شطا لمساعدة العرب - ومعهم ألفان من الجند - فأعلن إسلامه ، واشترك في قتال أهل تنيس فأبلى بلاء حسنا إلى أن استشهد في ليلة الجمعة النصف من شعبان سنة ٥٢١هـ (١٩ يوليو ٦٤٢) فقبر حيث هو الآن خارج دمياط .

وهذه الرواية العربية لا يتقف طويلا أمام النقد التاريخي ، فان مدينة شطا - التي يقال ليها سميت باسم هذا القائد المدفون بها - كانت موجودة ومعروفة بهذا الاسم قبل الفتح ، كما أن حاكم دمياط في ذلك الوقت معروف أيضا ، وقد ذكر المؤرخ حنا النقيوسي أنه كان

يسمى (حنا) لا (شط) ولا (الهاموك) . غير أننا هذا لا نستطيع أن نتجاهل بعض الحقائق الثابتة المتصلة بهذا الحادث ، فالمؤرخون العرب يذكرون أن هذا البطل قد استشهد يوم الجمعة النصف من شعبان سنة ٢١ هـ ، وهذا التاريخ يقابل التاسع عشر من يوليو سنة ٦٤٢ م ، وهو العام الذي تم فيه فتح هذه المنطقة ، كما أن التقاويم تثبت أن هذا اليوم كان يوم جمعة حقا ، فإذا قرنا هاتين الحقيقتين بحقيقة ثالثة ، وهي وجود قبر خاص في قرية شطا لا يزال قائما ، ولا يزال أهالي دمياط يحتفلون بذكرى صاحبه في النصف من شعبان من كل سنة حتى اليوم ، استطعنا أن نصل إلى حل معقول ، وهو أن قائدا رومانيا انضم إلى العرب فعلا أثناء حربهم لدمياط وتينيس ، وأنه استشهد في هذا التاريخ ودفن في هذا المكان ، أما اسمه الحقيقي فلسنا نعرفه ، ولكن هذا الاسم لم يكن شطا على كل حال ، وإذا كان كذلك فإنه لم يكن قطعا حاكما لدمياط أو ابنا لحاكمها .

دمياط في عصر الامارة :

وخلصت مصر للعرب بعد إتمام فتحها ، وعين على دمياط وتينيس ولاية من المسلمين بحكمونهما ، غير أن معظم أهلها ظلوا على دينهم المسيحي سنين طويلة بعد ذلك ، ولم تنس الدولة البيزنطية أنها قد فقدت — بخروجها من مصر — خير أملاكها ، فطلت قرونا طويلة تغير على شواطئ مصر الشمالية بأساطيلها عساها تستطيع استردادها ، وكانت أولى هذه المحاولات في عهد الوالي العربي الثاني على مصر — عبد الله بن سعد بن أبي السرح — ، ولكن أساطيل الروم هزمت في موقعة ذات الصواري ، ولم تشم هذه الهزيمة عن عزمهم ، فظلوا يغيرون على سواحل مصر ، وإنما اتجهت غاراتهم بعد ذلك عن الاسكندرية إلى موانئ مصر الشرقية : الفرما وتينيس ودمياط ، مما دفع الخلافة الإسلامية وولاية مصر من العرب إلى العناية كل العناية بتحصين هذه الموانئ وتزويدها بالحميات تقيم وترابط فيها داءا للدفاع عنها براً وبحراً .

وقد قام جند دمياط وحاميتها في القرون الإسلامية الأولى بواجبهم خير قيام، فردوا عن المدينة غزوات الروم المتتابعة، كما كانوا يسهمون في إخضاع الثورات الداخلية التي كان يقوم بها سكان الحوف الشرقي (أى الأراضى الواقعة شرق الدلتا)، وكانت غالبيتهم من الأقباط.

تعددت غارات الروم على دمياط في القرون الثلاثة الهجرية الأولى، وقد أشار المؤرخون إلى بعضها، وهى التى حدثت فى السنوات : ٩٠ (٧٠٩) و ١٢١ (٧٣٨) و ٢٣٨ (٨٥٣) و ٢٤٥ (٨٥٩) و ٢٤٧ (٨٦١) و ٣٥٧ (٩٦٨). وكانت أخطر هذه الغارات وأهمها الغارة التى وفدت على دمياط فى سنة ٢٣٨ (٨٥٣) فى عهد ولاية عنيسة بن إسحاق على مصر.

فى تلك السنة وفد الروم إلى دمياط يحملهم أسطول كبير يزيد على ثلاثمائة سفينة، واستطاعوا أن ينزلوا إلى المدينة ويستولوا عليها، فقتلوا عدداً كبيراً من سكانها وسبوا النساء، وساعدهم على هذا كله خلو المدينة وقتذاك من حاميتها وجندها، فقد انتهزوا إلى مصر — عنيسة بن إسحاق — فرصة عيد الأضحى من تلك السنة، وأراد أن يحتفل بطهور ولديه حتى يجمع بين العيد والفرح، واحتفل لهذا احتفالاً كبيراً، فدعا إليه حاميات دمياط وتينيس والاسكندرية ليشاركوا فى هذا الحفل، ويبدو أنه كان للروم عيون وجواسيس فى هذه الثغور، فأبلغوهم خبر استدعاء حامياتها، فانهزوا هذه الفرصة السانحة، وانقضوا على دمياط صباح يوم عرفة، فقتلوا ونهبوا وأسروا؛ ولكن الكتب التاريخية تروى أن عنيسة كان قد غضب على قائد من قواد دمياط يدعى أبو جعفر بن الأوكشيف، فسجنه فى بعض أبرجة المدينة، فلما اشتد الخطب بنزول الروم، مضى إلى أبى جعفر فى سجنه بعض أعوانه، فكسروا قيده وأخرجوه، والتفوا حوله، وانضم إليهم نفر من أهل المدينة وتقدموا جميعاً لمحاربة الروم حتى هزموهم وأخرجوهم من المدينة، ففرحوا عنها إلى تينيس فلم يقدروا عليها، وعادوا إلى بلادهم.

وبلغ الخبر إلى عنيسة فى عاصمته — القسطنطينية — فنفر فى الحال بجند مصر، ولكنه وصل إلى دمياط متأخراً بعد مغادرة الروم لها، فأخذ يعنى بتحصين المدينة.

وأخبار الفتح العربي لمصر تروى أن دمياط القديمة كان يحيط بها سور، فلعله أنشئ في عهد الرومان ، وأخبار هذه الغارة تروى أيضاً أن أبا جعفر بن الأكشاف سجن في بعض أبرجة المدينة ؛ فالمدينة إذن كان لها سور قديم ، وكان بها بعض الأبرجة والحصون ؛ ولكن نجاح هذه الغارة يبين أن هذه التحصينات جميعاً كانت قد تهدمت وتشعث بنيانها ، لهذا لم يكن من الغريب أن يأخذ الذعر من الخليفة العباسي المتوكل مأخذه عندما تصله أخبار هذه الغارة الخطرة ، فيرسل في الحال إلى واليه على مصر يأمره ببناء أسوار قوية تحيط بنغور مصر الشرقية : دمياط وتينيس والفرما ؛ وأسرع عنسة بتنفيذ أوامر الخليفة : فبدأ في بناء سور دمياط وحصونها يوم الاثنين لثلاث خلون من شهر رمضان سنة ٢٣٩ (٥ فبراير ٨٥٤) ، وفي نفس السنة بنيت أسوار تينيس والفرما وحصونها .

وكان لهذه الغارة أثر خطير آخر ، فقد أدرك الخليفة أيضاً أن هذه الأسوار والحصون لا تكفي للدفاع عن نغور تطل على البحر ، وإنما الدفاع الحق عنها يكون بإنشاء الأساطيل ، لأن الروم لا يفدون إليها إلا في البحر وفي أساطيل قوية ، فأمر واليه أن يعنى بشئون الأساطيل ، يقول المؤرخ المصري الكبير تقي الدين المقرئ تعقيباً على أخبار هذه الغارة : « وأنشأ من حينئذ الأسطول بمصر » ، ويقول في مكان آخر : « فوقع الاهتمام من ذلك الوقت بأمر الأسطول ، وجعلت الأرزاق لغزاة البحر كما هي لغزاة البر ، وانتدب الأمراء له الرماة ، فاجتهد الناس بمصر في تعليم أولادهم الرماية » ؛ فالفضل في إنشاء أساطيل مصرية - سيكون لها شأن أي شأن في الدفاع عن سواحل مصر بعد ذلك ، وفي حروب مصر الإسلامية - إنما يرجع إلى هذه الغارة .

ونحن نلاحظ أن العناية بتحسين دمياط برأ وبحراً في عهد المتوكل قد أتت ثمارها ، فلم تقلد على دمياط غارة بعد ذلك قوية خطيرة كتلك التي وفدت في عهد عنسة ، وإنما كانت الغارات اللاحقة جميعاً غارات قرصنة هدفها الأول والأخير النهب والسلب ، والأسر والقتل ، أما دمياط فبقيت سليمة ترد عادية المعتدين بفضل جندها وأهلها وحصونها وأساطيلها .

دمياط في العصر الفاطمي :

وقد ازدهرت دمياط في العصر الفاطمي، وبدأت تتفوق على رصيفتها تنيس والفرما، وتأخذ مكان الصدارة بين موانئ مصر الشرقية ، وساعدها على هذا أن الفرع البلوزي أخذ منذ ذلك الحين يضيق وتطمره الرمال ويفقد أهميته شيئاً فشيئاً ، بينما أخذ فرع دمياط يتسع وينطلق إلى البحر وتزيد أهميته ويكثر استعماله .

ولعل أكبر الدوافع التي دفعت الفاطميين للعناية بنهر دمياط أنه كان مركزاً هاماً لصناعة النسيج ، وتحيط به وتتبعه مدن وقرى كثيرة كلها مراكز لصناعة النسيج أيضاً ، فقد كانت مصر تنقسم إدارياً وقتذاك إلى كور (وواحدتها كورة) ، وهي ما يقابل المديرية أو المحافظة في مصطلحنا الحديث ؛ وكان الجزء الشمالي الشرقي من مصر يكون كورة كبيرة واحدة تسمى (كورة تنيس ودمياط) ، والكورة — كما يتبين من اسمها مركزان هاما ، هما : تنيس ودمياط ، لانتفضل إحداهما الأخرى ، وإنما كانتا تتناوبان في احتلال الصدارة بين مدن هذه الكورة إلى أن ضعف شأن تنيس وتلاشت في العصر الأيوبي ، فأصبحت دمياط هي المدينة الأولى بين مدن هذه الكورة .

وكان يقع دمياط مدن وقرى كثيرة لها ذكر ومقام ملحوظ في أقوال المؤرخين ، لأنها كانت جميعاً مراكز هامة — كما ذكرنا — لصناعة النسيج ، وأهم هذه المدن : شطا وتنيس وتونة وبورة ودبيق .

وكان يلي دمياط وتنيس دمنيا واليان من قبل وإلى مصر العام ، ثم من قبل الخلفاء الفاطميين بعد ذلك ، كما كان يشرف على القضاء في مصر كلها قاض أكبر ، وهو الذي لقب في أول العصر الفاطمي بقاضي القضاة ، وكان هذا القاضي الأكبر — أو قاضي القضاة — يعين من قبله قضاة ينوبون عنه في الحكم بالمدن الكبيرة كدمياط وتنيس ، وكان هذا القاضي يتخذ مقره في تنيس أحيانا وينيب عنه بدوره من يتولى عنه الحكم في دمياط ، وقد يحدث العكس ، أو قد يتولى الحكم بنفسه في المدينتين متناظلاً بينهما .

ويستفاد من كلام الكندي وهو يؤرخ لبعض قضاة دمياط أن قاضي هذه المدينة في العصر الفاطمي كان يمكث بها تسعة أشهر للنظر في القضايا والأحكام ، ثم يعود إلى القسطنطينية فيقيم بها «ثلاثة أشهر : رجب وشعبان ورمضان ... بحسب العادة» . وكان في كل من دمياط وتونس في العصر الفاطمي محتسب خاص — يعين من قبل محتسب القاهرة — للإشراف على شئون المدينتين الاجتماعية والاقتصادية .

والدولة الفاطمية نشأت أول ما نشأت في تونس — وكانت تسمى وقتذاك إفريقية وهي إقليم يطل على البحر الأبيض المتوسط ، ولهذا عني الفاطميون — وهم لا يزالون في إفريقية — عناية فائقة بالأسطول ، فأنشأوا السفن الكثيرة وزودوها بالرجال والعتاد ، وقد أسهمت أساطيلهم مساهمة فعالة في غاراتهم المتتالية على مصر حتى تم لهم فتحها في سنة ٥٣٥٨ .

فلما انتقلوا إلى مصر لم تقل عنايتهم بالأساطيل ، بل زادت ، ويقال إن المعز — أول خلفائهم بمصر — أنشأ في عهده أسطولاً يتكون من ستائة سفينة .

وكانت هذه السفن الحربية تبنى فيما كان يسمى في العصور الإسلامية : (دار الصناعة) أي دار صناعة السفن ؛ وكان في القسطنطينية قبل العصر الفاطمي دار صناعة فأبقى عليها الفاطميون ، وأنشأوا إلى جانبها دار صناعة جديدة في (المقس) — ميناء القاهرة — ، وكان هناك لاشك دار صناعة في دمياط منذ بدىء بإنشاء الأسطول في عهد عبسة ، كما كانت هناك دار صناعة أخرى في الإسكندرية .

وقد عني الفاطميون عناية زائدة بهذه الدور ، وبخاصة دار صناعة دمياط ، فقد دخلت بلاد الشام في ملكهم ، ودمياط أقرب موانئ مصر لهذه البلاد ، كما أنها معرضة لغارات الصليبيين عليها كما كانت معرضة لغارات البيزنطيين من قبل .

وكان الفاطميون يعنون بالأساطيل وتجهيزها والإشراف على الثغور عناية سنوية دائمة لا تنقطع ولا تنقطع ؛ وكان موعد هذه العناية في شهر برمهاث من كل سنة عندما يصحو الجوع ، يقول المقرئ : «وفي برمهاث تجرى المراكب السفرية في البحر الملح إلى ديار مصر من المغرب والروم ، ويهتم فيه بتجديد الأجناد إلى الثغور كالإسكندرية

ودمياط وتينيس ورشيد ، وفيه كانت تجهز الأساطيل ومراكب الشواني لحفظ الثغور « وينص في مكان آخر على أن سفن الأسطول كانت تصنع في دور الصناعة جميعاً في مصر والاسكندرية ودمياط ، يقول : « وكان من أهم أمورهم (يقصد الفاطميين) احتفالهم بالأساطيل والأجناد ، ومواصلة انشاء المراكب بمصر والاسكندرية ودمياط من الشواني الحربية والشلنديات والمسطحات إلى بلاد الساحل حين كانت بأيديهم ، مثل صور وعكا وعسقلان » .

وكان أسطول دمياط يقوم على حمايتها من عدوان المغير؛ كما حدث في عهد الخليفة الفاطمي الفائز ، في جمادى الآخرة من سنة ٥٥٥٠ (أغسطس ١١٥٥) وصل إلى دمياط أسطول صاحب صقلية في نحوستين مركباً «فعاثوا وقتلوا ونزلوا بتينيس ورشيد والاسكندرية فأكثروا فيها الفساد» فتصدى لهم أسطول دمياط حتى ردهم .

وحدث أيضاً في خلافة العاضد — آخر خلفائهم — ووزارة شاور الثانية ، أن نزل أسطول الصليبيين في عشرين شونة (أي سفينة حربية كبيرة) على تينيس فقتل وأسرو سبى ، فتولى أسطول دمياط محاربة هذه السفن وردها .

هاتان هما الغارتان اللتان نزلتا على دمياط وما مجاورها طيلة العصر الفاطمي ، لإحداهما وفدت من صقلية ، والثانية أرسلها الصليبيون في الشام ، مما بين في وضوح أن غارات البيزنطيين على شواطئ مصر قد انقطعت في العصر الفاطمي ، ولعل السبب في هذا أن الدولة البيزنطية كانت قد أصابها الضعف والكلال ، وأن العلاقات بين الفاطميين والبيزنطيين كانت في معظمها علاقات طيبة .

ولكننا نلاحظ أيضاً أن خطراً مسيحياً جديداً أخذ يظهر في الأفق ، ويهدد دمياط وسواحل مصر ؛ كان يمثل هذا الخطر أساطيل النورمانديين في صقلية : وأساطيل الصليبيين في سواحل الشام بعد استيلائهم عليها في أعقاب الحملة الصليبية الأولى في أواخر القرن الخامس الهجري (١١م).

غير أن واجب الأسطول المصري في العصر الفاطمي لم يكن مقصوراً على الدفاع عن الشواطئ فحسب ؛ وإنما كان واجبه الأصلي الخروج إلى مياه البحر الأبيض .

المتوسط للغزو، وكانت الأساطيل تخرج للغزو من ثغر دمياط - لامن الأسكندرية -
فاذا عادت بغنائمها نزلت عليه أولاً.

وكان الخلفاء الفاطميون يحتفلون بالأساطيل عند خروجهما للغزو احتفالاً كبيراً رائعاً،
فقد كان لهم منظره بالمقس (ميناء القاهرة) يجلس فيها الخليفة لوداع الأسطول قبل
خروجه للغزو، ولاستقباله إذا عاد، وكانت العادة إذا تم إعداد الأساطيل أن يجلس
الخليفة في هذه المنظره وبين يديه الوزير، ويأتي القواد بالسفن من دار الصناعة
بالقساط حتى يصلوا إليها إلى المقس، فيقومون بعرض حربي بحري جميل، فتتحرك
السفن في النيل بين يدي الخليفة «وهي مزينة بأسلحتها ولبوسها، وفيها المنجنقات :
تلعب فتتحدر، وتقاوم بالمجاديف، كما يفعل في لقاء العدو بالبحر الملح، ويحضر بين
يدي الخليفة المقدم والرئيس، فيوصيها، ويدعو للجاعة بالنصرة والسلامة... إلخ»،
هكلمنا وصف المقرئ في خطه حفلة العرض البحري قبل خروج الأساطيل المصرية
للفوز في العصر الفاطمي، ثم استورد فنص في وضوح تام على أن هذه الأساطيل
كانت تخرج للغزو من ثغر دمياط، قال: «وتنحدر إلى دمياط، وتخرج إلى البحر
الملح، فيكون لها ببلاد العدو صيت وهيبة، فاذا وقع لهم مركب لا يسألون عما فيه سوى
الصغار والرجال والنساء والسلاح، وما عدا ذلك فلا أسطول» أي أن رجال الأسطول
كانوا يقدمون للدولة أسراهم من الأطفال والرجال والنساء، وغنيمتهم من السلاح؛
أما غنائمهم من الأموال والمتاع فكانت تترك لهم جزاء وفاقاً على بلائهم في الغزو.
وقد وصلتنا أخبار قليلة عن بعض هذه الغزوات البحرية وانتصاراتها في العصر
الفاطمي، وكيف كانت تستقبل عند عودتها، وماذا كان يفعل بأسراها.

ذكر المقرئ أنه قدم على الأسطول مرة أمير يقال له: حرب بن فور، فكسب
بطسة (أي سفينة حربية كبيرة) حصل فيها خمسمائة رجل..

وأفق مرة أن قدم على الأسطول قائد آخر يدعى سيف الملك الجمل، فخرج
للفوز، وأسر بطسة عظيمة فيها ألف وخمسمائة شخص، بعد أن قتل منهم نحواً من مائة
وعشرين رجلاً، وعاد بالسفينة والأسرى إلى دمياط، ثم صعد بها إلى القاهرة،
فخرج الخليفة إلى منظره المقس، واحتفل بعودته احتفالاً رائعاً، وأطلق الأسرى بين

يديه ، «واستدعيت الجمال لركوبهم ، وشق بهم القاهرة ومصر ، وهم كل اثنين على جمل ظهراً لظهر» .

دمياط في العصر الديوبولي:

وفي منتصف القرن السادس الهجري (١٢م) قضى على الدولة الفاطمية الشيعية وخلفتها في حكم مصر دولة جديدة سنية المذهب هي دولة بني أيوب ؛ وفي عهد بني أيوب لعبت دمياط دوراً خطيراً في تاريخ مصر السياسي والحربي ، فقد كثرت غارات الصليبيين العنيفة على هذا الثغر ، ولكن دمياط صمدت لهذه الغارات ، ودافعتها ودفعتها في شجاعة وبطولة :

١ - في عصر صلاح الدين

إنه بدأت هذه الغارات في سنة ٥٦٥هـ وصلاح الدين لا يزال يعد وزيراً للعاضد، في الثالث من صفر من تلك السنة وصلت إلى دمياط أساطيل الصليبيين في نحو ألف مركب تحمل مائتي ألف فارس وراجل ، واستطاعوا أن ينزلوا بالبر ، وظلوا يحاصرون المدينة ثلاثة وخمسين يوماً ، فأسرع صلاح الدين وأرسل إليها الجيوش بقيادة ابن أخيه تقي الدين عمر بن شاهنشاه وخاله شهاب الدين الحارمي ، وأسرع الخليفة العاضد فقدم لصلاح الدين كل مساعدة ممكنة ، ثم خرج صلاح الدين بنفسه ليشرف على القتال في دمياط ، ووصلت أخبار هذه الحملة إلى نور الدين في الشام ، فأرسل إليه الأمداد ، وخرج نور الدين بنفسه لمناوشة أملاك الصليبيين في الشام ، فاضطروا أمام هذا وذاك أن يغادروا المدينة في الحادي والعشرين من ربيع الأول بعد هذا الحصار الطويل دون أن يصيبوا منها شيئاً ، وبعد أن «غرق لهم نحو ثلاثمائة مركب ، وقتل رجالهم بفناء وقع فيهم ، وأحرقوا ما ثقل عليهم حمله من المنجنيقات وغيرها» .

واجه صلاح الدين هذه الشدة العظمى في دمياط وهو لا يزال يخطو خطواته الأولى نحو ملك مصر ، لهذا نجده يعنى بهذا الثغر وبتحصينه - في قابل أيامه - بعناية

خاصة ؛ ففي الثاني والعشرين من شعبان سنة ٥٧٢ (فبراير ١١٧٧) - وقد استقل صلاح الدين بمصر - خرج من القاهرة فقصده إلى دمياط ليارتها ، وكان في صحبته ولداه : الأفضل على ، والعزیز عثمان ، وكتبه العماد الأصفهانی ، فكث بالمدينة يومين ثم رحل منها إلى الاسكندرية ، وقد حدد العماد الأصفهانی الغرض من هذه الزيارة بقوله : « ورأى (أى صلاح الدين) في الحضور بالثغر المذكور ومشاهدته الاحتياط » ، كما ذكر أن سفن الأسطول بدمياط كانت قد خرجت للغزو وعادت بسبي كثير ، قال : « وكان له سبي كثير جلبه الأسطول » .

وفي سنة ٥٧٧ (١١٨١-١١٨٢) كان قد مضى على صلاح الدين منذ استقل بمصر عشر سنوات ، وأراد أن يرحل إلى الشام ليوفر جهوده كلها لتحقيق هدفه الأسمى وهو محاربة الصليبيين وطردهم من البلاد الإسلامية ، ولكنه أراد - قبل أن يغادر مصر - أن يستوثق من مناعتها وقوة حصونها وثغورها ، ففي هذه السنة بدأ بناء قلعة الجبل بالقاهرة ، وفيها (في ربيع الأول) أغار الفرنج على تنيس واغتصبوا مركباً للتجارة ، فاشتد خوف أهلها ، وأرسل السلطان رجاله لعمارة قلعة تنيس وتجديد الآلات بها ، فقدروا « لعمارة سورها القديم على أساساته الباقية مبلغ ثلاثة آلاف دينار » ، وفيها أيضاً انتشر الخبر بأن (الابرنس ارناط) صاحب الكرك على عزم الخروج إلى أيلة ومنها إلى تيماء رغبة في الاستيلاء على المدينة المنورة « فورد الخبر من نائب قلعة أيلة بشدة الخوف من الفرنج » .

واتخذ صلاح الدين لهذا الخطر عدته ، فاستدعى خمسين مركباً من مراكب دمياط لتشارك في حماية ساحل مصر (الفسطاط) ، وأمر ببناء برج في السويس فيه الفرسان لحفظ طريق الصعيد ، وأمر بعمارة قلعة تنيس وأسوارها - كما سبق أن ذكرنا - وكتب إلى دمياط بترتيب المقاتلة على البرجين بها ، فشدت المراكب إلى السلسلة ليقاتل عليها ويدافع عن الدخول من بين البرجين ، ورم شعث سور المدينة ، وسدت ثلمه ، واتقنت السلسلة التي بين البرجين ، يقول المقرئى : « فبلغت النفقة على ذلك ألف ألف دينار » .

وفي شعبان من نفس السنة شرع في إصلاح سور دمياط وبناء ما تهدم منه ، وكان ذرع هذا السور كما نص المقرئى : « أربعة آلاف وستمائة وثلاثون ذراعاً » كما شرع في بناء برج جديد بالمدينة .

ولم يقنع صلاح الدين بهذه الأوامر يصدرها ، وإنما رحل بنفسه في شهر شوال إلى مدينة الاسكندرية فأشرفت على حصونها وأسوارها ، وتركها في أول ذى القعدة فسار إلى دمياط وأشرف بنفسه أيضاً على ما تم من إصلاح أسوارها وتحصين قلاعها وأبراجها وسلسلتها ثم عاد إلى القاهرة .

وظلت العناية بدمياط وتينيس دائبة مستمرة حتى آخر سنة من حياة صلاح الدين ، ففي سنة ٥٨٨ - أى قبل وفاته بسنة واحدة - صدر الأمر بإخلاء تينيس ونقل أهلها إلى دمياط ، فخلت تينيس لإامن المقاتلة ، كما صدر الأمر بحفر خندق حول دمياط وعمل جسر عند سلسلة البرج بها .

هذه هى دمياط حتى آخر عهد صلاح الدين ، قد عنى بتحصينها العناية الفائقة فحفر حولها خندق يحميها ، ورمت أسوارها ترهيباً شاملاً ، وبنى بها برج جديد ، وجددت سلسلتها . وبنى عندها جسر لحمايتها ، وشدت إليها السفن لتقاتل عنها المغيرين ، وشحنت هذه الحصون جميعاً بالمقاتلة ، وزيد عددهم ، وزادت النفقة عليهم . ولم تنقطع العناية بدمياط في عهد خلفاء صلاح الدين ، بل استمرت وزادت ، فالمؤرخون يروون أن العزيز بن صلاح الدين ، عزم في ذى الحجة من سنة ٥٩٢ (اكتوبر ١١٩٥) « على نقض الأهرام ونقل حجارتها إلى سور دمياط ، فقل له إن المؤونة تعظم في هدمها والفائدة تقل من حجرها . فانتقل رأيه من الهرمين إلى الهرم الصغير وهو مبنى بالحجارة الصوان ، فشرع في هدمه » ؛ ولكن هؤلاء المؤرخين لم يذكروا بعد هذا هل نقلت حجارة هذا الهرم الصغير فعلاً لتحصين سور دمياط أو أنها استخدمت في أغراض أخرى .

وفي عهد العادل أبى بكر - أخى صلاح الدين - أرسل في سنة ٥٩٩ - وهو بالشام - جنداً من رجالها لحفظ دمياط من الفرنج .

٢ - في عهد الملك الكامل محمد

وفي أواخر عهد الملك العادل أبي بكر أصباب الحروب الصليبية انقلاب جديد خطير فقد لاحظ الصليبيون أن مصر هي حصن الإسلام القوى وضيعته الغنية، وأنها مصدر الأمداد القوية الوفيرة من الرجال والميرة والسلاح، وبفضل هذا كله استطاع صلاح الدين أن ينتصر عليهم انتصاراته الحاسمة، ويستعيد منهم بيت المقدس والكرك والشوبك وغيرها من عشرات المدن والقرى؛ لهذا كله قرأهم على أن يبدأوا بمصر، فإذا استولوا عليها فقد سهل عليهم كل شيء، واستطاعوا في يسر أن يستعيدوا بيت المقدس، بل ويملكوا الشام كله.

بدأوا هذا الانجاء في سنة ٦١٥ (١٢١٨) والملك العادل يناضلهم في الشام، وفي مصر ابنه الملك الكامل محمد ينوب عنه في الحكم.

واتخذ الصليبيون لهذا الأمر عدته، ووصلتهم الأمداد الوفيرة من ممالك أوروبا المختلفة، فلما تكامل عددهم أبحروا - بقيادة جان دي برين ملك بيت المقدس - من عكا إلى دمياط في أسطول ضخم كثير العدد يحمل نحو السبعين ألف فارس وأربعمائة ألف رجل، ووصلوا إلى شواطئ دمياط، ونزلوا برها الغربي يوم الثلاثاء رابع ربيع الأول من سنة ٦١٥ (يونيو ١٢١٨)، وكان هذا البر الغربي يسمى جزيرة دمياط وهي تسمية مجازية لأن مياه البحر تحيط به شمالاً، ومياه النيل تحيط به شرقاً، كما كان يسمى أيضاً جزيرة دمياط، والجزيرة في اللغة الناحية، أو لعله سمي كذلك لأنه يجاز إليه من دمياط.

واعسكر الصليبيون في مجموعهم الحاشدة بهذا البر الغربي تجاه دمياط وحصنوا معسكرهم، فحفروا حوله خندقاً وأحاطوه بسور وستائر.

وكانت دمياط - كما سبق أن أسلفنا - مدينة حصينة بغاية الحصانة تحيط بها الأسوار والقلاع والأبراج القوية الضخمة، ويحيط بهذه الأسوار الخندق الذي أنشئ في



الفرنج ينزلون بدمياط في عهد الملك الكامل

وأختر عهد صلاح الدين. وكان عند مدخل فرع دمياط برج ضخيم مشحون بالمقاتلة والسلاسل الحديدية المتينة تمتد منه إلى برج مقابل على شاطئ دمياط لمنع سفن العدو من العبور في النيل والوصول إلى المدينة. وكان هذا البرج هو مفتاح دمياط. لا يمكن للصليبيين الوصول إليها إلا إذا استولوا عليه، ولهذا توفرت جهودهم كلها في أول الأمر للاستيلاء على هذا البرج المنيع، واستعانوا لتحقيق هذا المدف ببناء أبراج خشبية عالية أقاموها على سفنهم وتقدموا بها إلى البرج لمحاربة جنده وحاميته ولكن هؤلاء الجنود استطاعوا أن يردوهم أكثر من مرة.

ووصلت أخبار نزول الصليبيين إلى بر دمياط الغربي إلى الملك الكامل، فخرج بجيشه متجهاً إلى الشمال، وأرسل الأساطيل إلى دمياط، وأمر الولاة بجمع العربان. ونزل الكامل بمنزلة العادلة قرب دمياط، وعسكر بها. هذا والملك العادل يرسل إليه المدد لتلو المدد من الشام ليستعين بها جميعاً في محنته.

وظل البرج يقاوم ويمنع أربعة أشهر طويلاً، وأخيراً بنى الفرنج برجا عالياً ضخماً وأقاموه على بطسة كبيرة، وتقدموا به تحت وابل من سهام المصريين إلى أن استندوا برحهم إلى البرج المدافع، وقاتلوا به قتالاً عنيفاً إلى أن استولوا على برج دمياط.

وكان استيلاؤهم على هذا البرج حادثاً خطيراً، ألياً فقد سهل لهم الاستيلاء على المدينة بعد ذلك، وكفى للدلالة على خطورة هذا الحادث أن يذكر أن الملك العادل عندما سمع بخبره وهو مقيم بمرج الصفر بالشام تأوه تأوهاً شديداً، ودق بيده على صدره أسفاً وحزناً، ومرض من ساعته، ثم لم يلبث أن مات من حسرته بعد أيام. وخلص ملك مصر للملك الكامل محمد، فاشتد ثقل العبء الملقى على كتفيه، لأن الصليبيين أقدموا بعد استيلائهم على البرج فحطموا سلسله لتجوز مراكبهم في نهر النيل، فاضطر الكامل لإقامة جسر عظيم جنوبي البرج لمنعهم، ولكنهم قاتلوا عليه قتالاً شديداً إلى أن قطعوه، ويقال أن الكامل صرف على البرج والحرس في ذلك الوقت ما ينيف على سبعين ألف دينار. ثم لم يأس، وإنما أمر أن تغرق عدة من السفن في عرض النيل لمنع سفن الصليبيين من العبور جنوباً، واحتال الفرنج على هذا الاجراء

الأخير حيلة ماكرة، فقد كان هناك على البرج الغربي خليج قديم يعرف بالخليج الأزرق، كان يجرى فيه النيل فيصب في البحر ولكن الرمال طمرته، فأعادوا حفره، وأصعدوا فيه سفنهم حتى وصلت إلى مدينة بورة التي تقابل منزلة العادلية حيث يعسكر الكامل بجيوشه، وبدأت المناوشات بين الحيشين .

كل هذا ودمياط لازالت آمنة سالمة وسورها بحميا وأبوابها مفتحة، والميرة والأمداد تصل إليها دون انقطاع والنيل لا يزال يفصل بينها وبين العدو، والعربان تقض مضاجع الصليبيين فتتخطفهم من معسكراتهم في الليل، حتى «امتنعوا من الرقاد خوفاً من غاراتهم» وقامت رياح عاصفة فقطعت مراسي مرمة الفرنج (وهي سفينة ضخمة جداً مشحونة بالميرة والسلاح) ويقول عنها المقرئ «وكانت من عجائب الدنيا، فمرت إلى بر المسلمين فأخذوها، فإذا هي مصفحة بالحديد لاتعمل فيها النار، ومساحتها خمسمائة ذراع فكسروها فإذا فيها مسامير زنة الواحد منها خمسة وعشرون رطلاً .

ولو سارت الأمور سيرها الطبيعي لما وصل الصليبيون إلى دمياط، ولكن البلاء نبت في معسكر المسلمين نفسه فقد انتهز أحد أمراءهم الكبار ويدعى عماد الدين أحمد ابن المشطوب فرصة موت الملك العادل، واستمال إليه عدداً من قواد الحيش وحاول أن يخلع الكامل ويولى مكانه أخاه الملك الفائز، وعلم الكامل بالمؤامرة فخشى على نفسه، فترك معسكره بالعادلية في الليل وانسحب جنوباً إلى أشموم طناح، وأصبح الحند بغير سلطان، ففرقت كلمتهم «وتركوا أثقالهم ونخيامهم وأموالهم وأسلحتهم ولحقوا بالسلطان» ورحب الفرنج بالفرصة المواتية، ونزلوا إلى البر الشرقي يوم الثلاثاء سادس عشر ذي القعدة دون أن يلقوا أية مقاومة، واستولوا على جميع ما كان في معسكر المسلمين «وكان شيئاً لا يحيط به الوصف»، وعسكروا في البر الشرقي، وحصنوا معسكرهم كالمعتاد فحفروا حوله خندقاً وبنوا سوراً، وبدأوا يحاصرون دمياط، ولكن أهلها صمدوا للقتال وقاوموا مقاومة مجيدة عنيفة، وخضعوا إبان هذا الحصار لشدائد مريرة، فقلت الأتوات عندهم، وكان بالمدينة — غير أهلها — عشرون ألف مقاتل، فلما طال بهم الحصار أنهكتهم الأمراض وغلّت الأسعار حتى بيع رطل السكر بمائة وأربعين ديناراً، والد الحاجة بثلاثين، وراوية الماء بأربعين درهماً، واحتال السلطان للاتصال بأهل دمياط

لتشجيعهم وتقوية روحهم المعنوية، فانتدب لذلك رجلاً من جنوده يدعى شمائل، فكان يسبح في الماء بعيداً عن أعين الفرنج حتى يصل إلى أهل دمياط فيعدهم بوصول النجدات.

وطال الحصار بالمدينة ستة عشر شهراً واثنين وعشرين يوماً، حتى اشتد بهم الضيق وهدمت لديهم الأقوات، وامتلأت الطرقات والمسالك بالموتى، وتسور الفرنج المدينة أخيراً ودخلوها في يوم الثلاثاء لخمسة بقين من شعبان سنة ٦١٦ (نوفمبر ١٢١٩)، فوضعوا السيف في الناس وأسرفوا في قتلهم، وجعلوا جامع المدينة كنيسة، وأنشؤا في القرى المحيطة، وأخذوا يحصنون المدينة وأسوارها، ليتخذوها قاعدة يتقدمون منها نحو الجنوب. وعسكر الملك الكامل قبالة طلخا عند مخرج بحر أشموم طناح (البحر الصغير الآن)، وشرع الجند يبنون الدور والفتادق والحمامات والأسواق في هذه المنزلة، (وقد سميت بعد ذلك المنصورة تيمناً بانتصار الكامل)، وكان قد أرسل الرسل إلى ملوك الأيوبيين في الشام من أخوته وأقاربه يسألهم النجدة والمعونة، فوصله في ذلك الوقت أخوه الملك المعظم عيسى بجيش كبير، فقوى به قلبه، وخاصة أنه سعى بعد وصوله فأنجاه من ورطته بإبعاد أخيه الفاتر وأبن المشطوب إلى الشام، فهدأت الفتنة، ووصلت نجدة أخرى من حاة بقيادة المظفر الثاني ابن أخت الملك الكامل في جيش كثيف، ففرح بوصولها. ثم وصلت نجدة كبرى بقيادة الملك الأشرف موسى أخى الكامل، وبلغت بذلك عدة فرسان المسلمين نحو أربعين ألف فارس، فقويت قلوب المسلمين، وبدأوا يستعدون للمعركة الحاسمة.

وتقدم الصليبيون — بعد تحصين دمياط — وبعد أن وصلتهم أمداد وفيرة العدد نحو الجنوب في حدهم وحديدتهم، ونزلوا قبالة جيش المسلمين شمال بحر أشموم طناح، ولا يفصل بين المعسكرين غير هذا البحر.

واشتد القتال بين الفريقين، وأبلى المسلمون بلاء حسناً، فاستولوا على نحو تسع سفن كبيرة من سفن الفرنج التي تحمل إليهم الميرة من دمياط، وأسروا منهم ألفين ومائتين، ثم اجتال الكامل فأرسل سفناً من أسطوله بقيادة الأمير بدر الدين بن حصون في بحر:

المحلة، وهو فرع كان يخرج من النيل قرب بنها الحالية، ويتصل به ثاية شمالي المنصورة. فحالت هذه السفن بين مراكب الفرنج الآتية من الشمال بالميرة وبين الوصول إلى معسكرهم عند المنصورة. ثم عبر جماعة من المسلمين في بحر المحلة هذا إلى الأرض التي يعسكر عليها الفرنج وحفروا مكاناً عظيماً في النيل، وكان في قوة الزيادة، فركب الماء أكثر تلك الأرض، وصار حائلاً بين الفرنج ومدينة دمياط، وانحصروا فلم يبق لهم سوى طريق ضيقة، فأمر السلطان في الحال بنصب الحسور عند أشموم طنناح، فعبرت العساكر عليها، وملك الطريق التي يسلكها الفرنج إلى دمياط إذا أرادوا الوصول إليها، فاضطربوا وضاعت عليهم الأرض .

وفت ذلك كله في عضد الفرنج، واضطربت أحوالهم وبدأوا يفاوضون الكامل، ويعرضون أن يتركوا دمياط مقابل أن تعاد إليهم القدس وعسقلان وطبرية وجبله وللأذقية والكرك والشوبك وغيرها من المدن الكثيرة التي كان قد استعادها منهم البطل صلاح الدين، وقبل الكامل أول الأمر أن يسلم لهم هذه المدن جميعاً عدا الكرك والشوبك لمكانتهما الحربية، ولكنهم أصروا على طلباتهم، فلما أحيط بهم من الشمال، وأصبحوا محاصرين بالمسلمين من كل الجهات، أدركوا أنهم هزموا، فهدموا خيامهم ومخانيقهم وألقوا فيها النار، وهموا بالزحف على المسلمين ومقاتلتهم للعودة إلى دمياط فحال بينهم وبين ذلك كثرة اللوحل والمياه الراكبة على الأرض، وبخشوا من الاقلمة لقالة أقواتهم، فذلوا وسألوا الأمان على أن يتركوا دمياط للمسلمين، دون قيد أو شرط.

وبدأ الكامل يستشير أهله وأصحابه، فأشار عليه البعض أن يواصل القتال حتى يتم له النصر النهائي، وأشار البعض الآخر أن يعطى الفرنج الأمان إجابة لطلبهم، وتغلب الرأي الأخير خوفاً من أن يصل إلى الفرنج مدد جديد فيستأنفون القتال، واتفق الفريقان على أن يقدم كل منهما رهائن للآخر حتى يتم تسليم دمياط، فأرسل الفرنج عشرين ملكاً من ملوكهم رهائن عند الملك الكامل، وأرسل الكامل ابنه الصالح نجم الدين أيوب وعدداً من قواده. وجلس الكامل مجلساً عظيماً لاستقبال هؤلاء الملوك الرهائن، وحوله أخوته وأهل بيته وصار في أسبة وناموس مهاب، وخرج قسوس

الفرنج ورهبانهم إلى دمياط ، فسلموها للمسلمين . تاسع عشرى رجب سنة ٦١٨ ، فلما تم تسليمها بعث الفرنج الصالح نجم الدين ومن معه من الأمراء ، كما أطلق الكامل رهائنه من الملوك ، واتفق الفريقان بعد هذا على هدنة مدتها ثمانية أعوام ، وعلى أن يطلق كل منهما من عنده من الأسرى . ودخل الملك الكامل دمياط وفي ركابه أخوته وقواده وعساكره ، وكان يوم دخوله إليها من الأيام المذكورة وأرسلت البشائر بأخذ دمياط إلى كل البلاد الإسلامية .

وهكذا نزع الصليبيون عن دمياط بعد ان قضوا فيها وعلى شاطئها الغربي والشرقي ثلاث سنين ، وأربعة أشهر ، وتسعة عشر يوماً .

وتبارى شعراء العصر - كالعادة - في تمجيد هذا النصر والاشادة به ، وكان أجمل ما قيل في هذه المناسبة قصيدة الشاعر الكبير شرف الدين بن عنين التي قال فيها :

| | |
|--------------------------------|--------------------------------|
| سلوا صهوات الخيل يوم الوغى عنا | إذا جهلت آياتنا والقنا للدنا |
| غداة التقينا دون دمياط جحفلا | من الروم لا يحصى يقينا ولاظنا |
| وأطعمهم فينا غرور فأرقلوا | إلينا سراعاً بالجهاد وأرقلنا |
| فما برحت سمر الرماح تنوشهم | بأطرافها حتى استجاروا بنا منا |
| بدا الموت من زرق الأسنة أحمر | فالقوا بأيديهم إلينا ، فأحسننا |
| وما برح الإحسان منا بسمية | نورثها من صيد آباؤنا الابنا |
| وقد عرفت أسيافنا ورقابهم | مواقعها منا ، فان عاودوا عدنا |
| منحناهم منا حياة جديدة | فعاشوا بأعناق مقلدة منا |
| ولو ملكونا لاستباحوا دماءنا | ولوغوا ، ولكننا ملكنا فاصبحنا |

٣- في عهد الملك الصالح نجم الدين أيوب

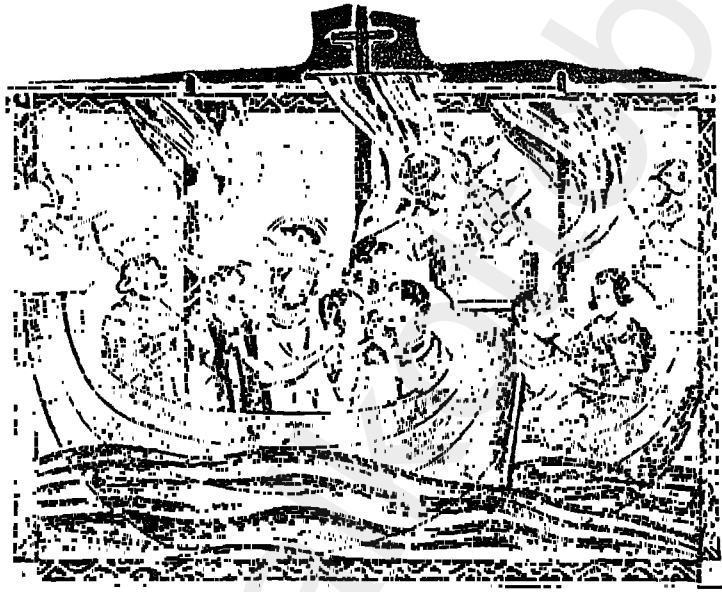
باءت حملة (جان دي برين) بالفشل ، ولكن الصليبيين لم ينسوا مشروعتهم الحديد الذي كان يهدف إلى الإستيلاء على مصر ليسهل عليهم تحقيق أملهم ، وهو امتلاك بيت المقدس وأراضى الشام جميعاً .

لهذا لم يكف يعضى على الحملة السابقة ثلاثون عاماً حتى أعدوا العدة للانتقاص على دمياط مرة ثالثة . ولم تأت الحملة هذه المرة من سواحل الشام وإنما أتت من فرنسا ، ففي ٢٥ أغسطس سنة ١٢٤٨ (٤ جادى الأولى سنة ٦٤٦) أبحر من مياه فرنسا أسطول ضخم يزيد على ١٨٠٠ سفينة تحمل ثمانين ألف مقاتل ومعهم عديتهم وسلاحهم ومؤونتهم وخيولهم . وكان قائد هذه الحملة الملك القديس لويس التاسع ملك فرنسا .

ومرت هذه الحملة فى طريقها إلى مصر - بحويرة قبرص ، فقضت بها بعض الوقت وقد أخطأت فى هذا ، لأنها لو اتخذت طريقها إلى مصر دون تلكأ لفاجأت الجيش المصرى قبل أن يستعد ويتجهب للخرب أهبته .

ثم أقلعت الحملة من قبرص ، ودمياط قبلتها ، ولكن رياحاً عاصيفة اعترضتها فى طريقها ، فأضطرت عدداً كبيراً من سفنها - نحو ٧٠ سفينة - إلى الانفصال والجنوح إلى شواطئ الشام .

وكانت علاقات الود والأخاء تربط بين ملوك الأيوبيين - منذ عهد الملك الكامل - وبين ملوك صقلية النورماندين ، ويقال إن ملك صقلية فى ذلك الوقت - الملك فردريك الثانى - أرسل أحد رجاله - متخفياً فى زى تاجر - إلى الملك الصالح نجم الدين أيوب - وكان مقياً فى الشام حينذاك - ليبلغه نبأ هذه الحملة كى يستعد لمقابلتها . وكان الملك الصالح مريضاً مرضاً خطيراً يعوقه عن ركوب فرسه ، غير أنه انزعج لهذا الخبر ، ولم يبال بالأم مرضه ، وأمر أن يحمل فى محفة ، وعاد مسرعاً إلى مصر ، ونزل عند قرية أشحوم طنح فى الحرم سنة ٦٤٧ (ابريل ١٢٤٩) وأصدر أوامره فى الحال بالاستعداد .



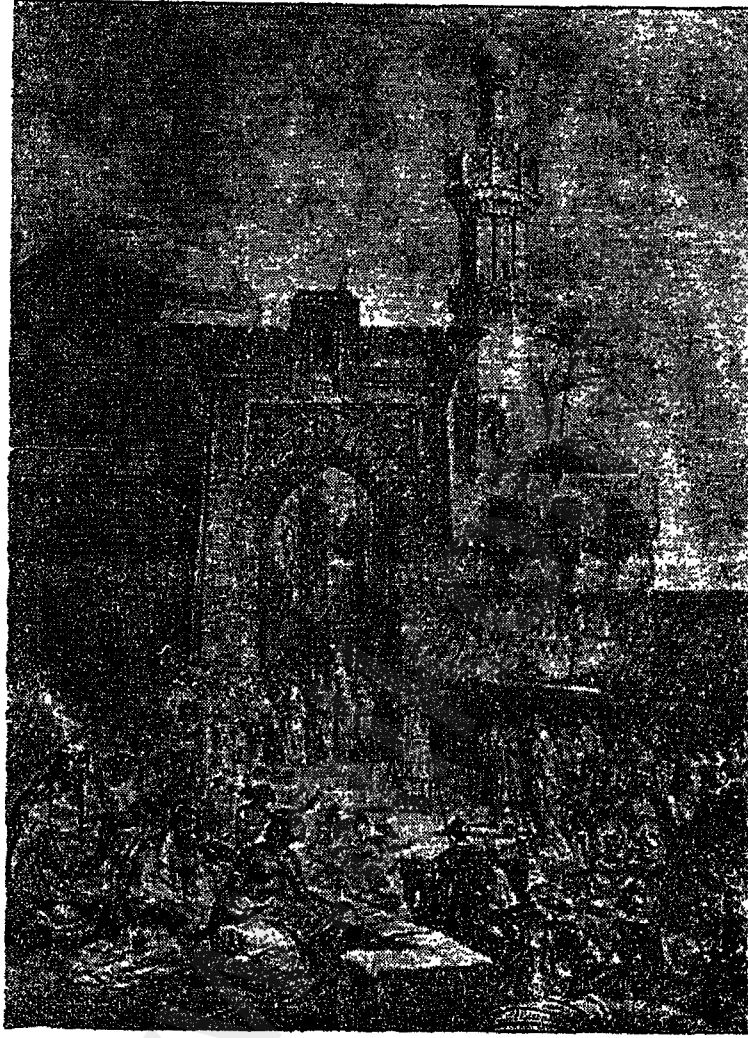
حملة لويس التاسع تغادر فرنسا إلى دمياط

فشحنت دمياط بالأسلحة والأقوات والجنود ، وبعث إلى نائبه في القاهرة - الأمير حسام الدين بن أبي علي - بأمره باعداد سفن الأسطول ففعل وأرسلها إلى دمياط شيئاً بعد شيء ، ثم أرسل الملك الصالح الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ على رأس جيش كبير ليعسكر في البر الغربي لدمياط ليكون في مقابلة الفرنج إذا قدموا .

هذه الحوادث الأولى وحوادث الحملة جميعاً تدل على أن المصريين أقادوا كل الفائدة من الحملة الماضية ، كما تدل على أن الصليبيين لم يفيدوا شيئاً من أخطائهم في الحملة السابقة فقد أدرك المصريون أن حملة جان دي بريين قد نزلت أول ما نزلت على الشاطئ الغربي لدمياط ، ولذلك أمر الملك الصالح جيشه بأن يعسكر على هذا البر لمنع نزول الصليبيين عليه . وقد كان السبب الأكبر في فشل الحملة الأولى أنها نزلت على دمياط وأرادت الوصول إلى القاهرة بالمسير بمحاذاة فرع دمياط فاعترضتها المخابر المائية الكثيرة المتفرعة عن هذا الفرع ، وكان يمكنهم أن يتفادوا هذا الخطأ في محاولتهم الثانية فينزولوا على الاسكندرية ولكنهم لم يفعلوا .

وفي الساعة الثانية من نهار الجمعة لتسع يقين من صفر سنة ٦٤٧ (يونيو ١٢٤٩) وصلت سفن الفرنسيين إلى الشاطئ المصري وأرست بازاء المسلمين ، فراعهم كثرة الجيوش المصرية على الشاطئ ، كما خطف بأبصارهم بريق أسلحة المسلمين . وعلا صهيل خيولهم وزادت جلبه جندهم فأفرغ الفرنسيين وهم لا يزالون في سفنهم ؛ يصف (جواتفيل) - مؤرخ الحملة وأحد قوادها - الرهبة التي ملكت على الفرنسيين أنفسهم عند رؤية الجيش المضرى فيقول : « وصل الملك أحام دمياط ، ووجدنا هناك كل جيوش السلطان تقف على الشاطئ : كتائب جميلة تسر الناظرين ، ذلك أن أسلحة السلطان قد صنعت من ذهب ، فكانت الشمس تشرق على هذه الأسلحة فتزيدها بريقاً ولعناً ، وكانت الحلية التي يتوتون بصنوجهم وأبواقهم الشرقية تدخل الرعب في أفئدة السامعين » .

وفي اليوم التالي استطاع الفرنسيون أن ينزلوا الجند إلى البر - بعيداً عن معسكر المصريين - وبدأت المناوشات بين الجيشين .



جنود لويس التاسع يدخلون دمياط ويحملون جامعها كنيسة

وهكذا بدأت المعركة : الجيش المصرى كبير العدد وافر العدة - كما وصفه الفرنسيون أنفسهم - ودمياط - على الشاطئ الشرقى لمدينة مسورة حصينة قوية قد شحنت بالخند والأقوات والأسلحة لأن السلطان لم ينس أن هزيمتها السابقة إنما كان سببها انعدام الأقوات بعد طول الحصار . فلو أن الامور سارت سيراً طبيعياً لاستطاع المصريون أن يهزموا هذه الحملة - رغم قوتها وكثرة جندها - ويردوها عن مصر فى يسر وسهولة . ولكن الحوادث تطورت تطوراً آخر .

فكما أن مؤامرة ابن المشطوب كادت تنزل الهزيمة بالجيش المصرى وتوقع الفرقة والاضطراب بين جنوده فى عهد الكامل ، كذلك جد فى حوادث هذه الحملة حادث خطير كاد ينتهى بها إلى نفس النتيجة .

كان السلطان الملك الصالح نجم الدين مريضاً - كما ذكرنا - ومقياً فى أشموم طنح ، وقد اشتد به المرض حتى أصبح على شفا حفرة من الموت ، فلما وصلت السفن الفرنسية إلى شاطئ دمياط أطلق الأمير فخر الدين الحمام الزاجل يحمل النبأ إلى السلطان ، وتعددت رسائله دون أن يتلقى رداً ، فأدرك أن السلطان قد مات ، فانتظر حتى وافى الليل وانسحب بجيشه كله من الشاطئ الغربى إلى دمياط ، ثم تركها وسار جنوباً متجهاً إلى معسكر السلطان عند أشموم طنح ، وأعمته العجلة فلم يحطم الجسر الذى كان يصل بين الشاطئين الشرقى والغربى . فتركه كما هو .

ونظر أهالى دمياط فوجدوا الجيش الذى أقى لحياتهم قد غادر المدينة ، فخافوا على أرواحهم وخرجوا فى الليل تاركين مدينتهم وأموالهم وديارهم « ولحقوا بالعسكر فى أشموم طنح وهم حفاة عرايا جياع حيارى بمن معهم من النساء والأولاد ، وفروا هاربين إلى القاهرة فأخذ منهم قطاع الطرق ما عليهم من الثياب وتركوهم عرايا » .

ومع أن السلطان كان فى أشد حالات المرض فقد غضب على فخر الدين ومن كان معه من القواد غضباً شديداً ، وأنبه على فعلته ، وأمر بشنق خمسين أميراً من أمراء الكنانية الذين كانوا يتولون الدفاع عن المدينة ، وكاد يأمر بقتل فخر الدين نفسه غير أن الوقت كان حرجاً فكم غيظه إلى أن تنكشف الغمة . وأصبح الفرنسيون فوجدوا معسكر

المصريين خلاء فظنوها بكيدة ، فأرسلوا كشافهم يستطلعون ، ولشدهما كانت دهشتهم عندما وجدوا الجسر قائماً والمدينة خالية تماماً من الجنود والأهلين ، فعب الجيش الفرنسي إليها واستولى عليها دون عناء ، وفرح بها للفرح كله فقد كانت مشحونة كما ذكرنا بالعتاد والمؤونة .

كان الملك لويس يستطيع أن يتقدم في هذه اللحظة نحو الجنوب قبل أن يفيق المصريون من الارتباك الذي حل بهم ، ولو أنه اتبع هذه الخطة لكتب له النصر . غير أنه تلكأ في دمياط مدة تقرب من الستة شهور ينتظر وصول بقية سفنه التي جنحت بها الريح نحو شواطئ سوريا ، هذه المدة كانت كافية تماماً . لأن يتم فيها المصريون استعدادهم ويستعيدوا نشاطهم ويجمعوا صفوفهم .

ولما وصلت السفن الشاردة دعى الملك لويس التاسع قواده للتشاور ولاختيار الطريق الذي يسلكونه ، أيتجهون نحو الاسكندرية أم يسرون قداماً إلى القاهرة ؟ وأشار الكونت بيتر البريطاني (Count Peter of Brittany) ومعظم قواد الجيش بالمسير إلى الاسكندرية والاستيلاء عليها أولاً ، وكانت حججهم معقولة وصحيحة من الناحية الحربية ، وتلخص في أن الاسكندرية كميناء تفضل دمياط في كثير ، فهي أصلح لإيواء سفنهم ، وإليها يستطيع أسطولهم أن يصل بالميرة من بلادهم في وقت قصير وجهد قليل . غير أن الكونت أرتوا (Artois) -أخو الملك لويس- عارض هذا الرأي ونصح الملك بالاتجاه مباشرة نحو القاهرة للإستيلاء عليها ، وحجته في ذلك أن القاهرة هي عاصمة الديار المصرية كلها ، فالاستيلاء عليها يستتبع حتماً الاستيلاء على مصر كلها ، وأضاف إلى هذا قوله : « إذا أنت أردت قتل الأفعى فاضربها على رأسها » ؛ واحتدم النقاش ، وانتهى باعراض الملك عن رأى قواده ، وأخذ به رأى أخيه ، وتقرر بذلك مسير الجيش الفرنسي جنوباً نحو القاهرة ، فكان هذا القرار حلقة جديدة في سلسلة الأخطاء التي انتهت بفشل الحملة .

إما المعسكر المصري فقد اضطرب اضطراباً شديداً لإنسحاب حامية دمياط وفرار أهلها ، ووقوعها في يد العدو ، وكان السلطان الملك الصالح معسكراً بأشموم طناح

بالمريض يشتد به يوماً بعد يوم، ولكنه مع هذا لم يفقد شجاعته، بل قرر أن يتراجع مع جيشه جنوباً إلى مدينة المنصورة لأنها تمتاز بموقع حصين، فالنيل يحميها غرباً، وبحر أشموم طناح يفصل بينها وبين قوى الفرنسيين في الشمال، وبدأ الحند المصريون في تحصين المنصورة فأصلحوا السور الذي كان يحيط بها وستره بالستائر ووقدمت الشواني المصرية بالعدد الكاملة والزجاجة، وجاءت الغزاة والرجال من عوام الناس الذين يريدون الجهاد من كل النواحي، ووصلت عربان كثيرة جداً، وأخذوا في الغارة على الفرنج ومناوشتهم، وأخذ هؤلاء المجاهدون والعربان يهاجمون معسكرات الفرنسيين حتى أقضوا مضاجعهم، فلم يكن يمر يوم دون أن يعودوا بعدد من الأسرى.

وفي ليلة الاثنين النصف من شعبان سنة ٦٤٧ (٢٢ نوفمبر سنة ١٢٤٩) مات السلطان الملك الصالح فكانت الطامة الكبرى، لأن الحند لو علموا بموته لتفرق شملهم وضعفت روحهم المعنوية، ولكن القدر هياً لمصر في تلك الساعة العصبية امرأة حازمة مدبرة هي شجرة الدر زوجة الملك الصالح، فقد أخذت عن الجميع خبر موت السلطان وأمرت بحمل جثته سراً في حراقة إلى قلعة الروضة، وعهدت للأمير فخر الدين بقيادة الجيش، وكان الأطباء يدخلون كالعادة إلى حجرة السلطان كل يوم وكأنهم يمدونه، كما كانت الأوراق الرسمية تدخل إلى نفس الغرفة وتخرج ممهورة بامضاء السلطان وعلامته بخط يشبه خطه كل الشبه.

وأرسلت الرسل إلى الملك المعظم تورانشاه بن الصالح - وكان مقبلاً في حصن كيفا - لاستدعائه إلى مصر، وهذه الإجراءات السريعة الحكيمة أنقذت مصر من أزمته، وسارت الأمور سيراً طينياً.

ووصلت أخبار موت السلطان - رغم كتمانها - إلى الفرنسيين في دمياط، فانتهزوا الفرصة وبدأوا زحفهم نحو الجنوب حتى وصلوا إلى المنصورة، فعسكروا شمال بحراًشموم، وأصبح هذا البحر حانجرأ بين معسكرهم ومعسكر المسلمين، وبدأ كل من الفريقين يستعد للمعركة الحاسمة.

أما الفرنج فقد بدأوا يحصنون معسكرهم فحفروا حوله — كما دتيم — خندقاً وأقاموا سوراً وستره بالسناثر، ونصبوا المحانيق، وأنت شوانيم فوقفت بازائهم في النيل. وأما المصريون فكانوا مطمئنين إلى مدينتهم وحصانة موقعهم، فأخذوا يناوشون الفرنج ويتحيلون في اختطافهم وأسره، وكانوا يفتنون في مناوشاتهم ويأتون فيها بكل طريق، وقد روى بعض المؤرخين أن جندياً مصرياً قور بطيخة وحملها على رأسه وغطس في الماء حتى حاذى الفرنج، فظنه بعضهم بطيخة ونزل لأخذها، فشطره المصري بسيفه وحمله إلى معسكر المسلمين.

ورأى ملك الفرنسيين أنه لا يستطيع الغلبة على المصريين إلا إذا التحم معهم في معركة ولا سبيل إلى هذا وبحر أشموم يفصل بينه وبينهم، ففكر في بناء جسر على هذا البحر ليعبر عليه جنوده إلى البر الآخر، وصدرت الأوامر بأقامة هذا الجسر، ولكن الفرنسيين لم يكادوا يتمون بضعة أمتار من الجسر حتى تساقط عليهم وأبل من قذائف المسلمين ردهم على أعقابهم، فرأى الملك أن يبنى برجين زودهما بالقذائف والقاذفين لحماية العمال الذين يعملون في البحر، وعاد الفرنج إلى عملهم يبغون إتمام الجسر للعبور عليه. ولكن المسلمين استطاعوا بمهارتهم الحربية وخطتهم الموفقة أن يفسدوا على أعدائهم عملهم، فكان الفرنج كلما أتوا من جسرهم متراً هدم المسلمون أمتاراً أمامه في شاطئهم المقابل، فأتسع المجرى من جديد، يقول جوفانيل — مؤرخ الحملة وأحد فرسانها: « فكأنوا يفسدون علينا في يوم واحد ما كنا ننجزه في أسابيع ثلاثة ».

وإلى هذا كله استعد المصريون بمجانيقهم ومقاليعهم، فكانوا يحطرون الفرنسيين وأبراجهم بقذائف من النار اليونانية التي أنزلت الرعب في أفئدتهم ونالت من شجاعتهم كل منال، ولبس أروع من وصف جوفانيل لهذا الدعر الذي استولى على الفرنسيين أمام هذا السلاح الخطر حين يقول:

وقال ولتر دي كوريل (Walter de Cureil): « أيها السادة، نحن في خطر داهم لأن العدو لو صوب النار نحو أبراجنا وبقينا نحن في أماكننا لأننا الموت من كل مكان، ولو أننا غادرنا مراكزنا التي استولينا عليها للحقنا العار، فلانقذ لنا من هذا الخطر

الدهام لإلا الله . . . فنصيح حتى اليكم أن نخر سجدنا — كلما صوبوا هذه النار حولنا — لنتمهل إلى الله سبحانه وتعالى أن ينجينا من هذا الخطر ؛ ولم يكن الملك لويس نفسه أقل جزعاً من رجاله ، يقول جوفانفيل واصفاً الرعب الذي استحوذ على الملك : « وكانت النار ترسل في انطلاقتها الأضواء الباهرة التي تملأ رحاب المعسكر فيبدو وكأننا في وضوح النهار ، ولقد صوب العدو النار نحونا هذه الليلة ثلاث مرات ، كما أطلقوها من قسيهم أربع مرات ، وكان الملك القديس كلما سمع أن النار الأغر يقية قد صوبت نحونا انتصب واقفاً على سريره ورفع يديه إلى السماء وابتدأ الصلاة وعيونه مخصلة بالدموع وهو يقول : أيها الإله الطيب أحفظ لي شعبي » .

يتضح من هذه الحوادث والأقوال أن الغلبة كانت للمصريين في أول المعركة ولو سارت الأمور سيراً طبيعياً لم لهم النصر النهائي ، ولكن خائفاً من البدو دل الفرنسيين في ذلك الحين على مخاضة في بحر أشموم — يستطيع الفرسان عبورها على خيولهم — نظير مبلغ من المال .

وفرح الفرنسيون بهذا الكشف ، ووضع الملك لويس خطة جديدة للمعركة ؛ وتلخص هذه الخطة في أن يعبر الكونت أرتوا بفرقة الفرسان من هذه المخاضة ، فاذا وصل إلى الشاطئ الذي يعسكر فيه المسلمون اشتبك معهم في قتال مؤقت ليشغلهم عن مهاجمة الفرنسيين الذين يقيمون الحسرى إلى أن يتموه ، فاذا تم بناء الحسرى عليه لويس ببقية جيشه ، وانضم إلى فرسان الكونت أرتوا ، وانقضوا جميعاً على جيش المسلمين .

كانت الخطة كما ترى محكمة وخطيرة ، ولو أنها نفذت كما وضعت لفضى الفرنسيون على الجيش المصرى قضاء مبرماً ، ولكن تهور الكونت أرتوا كان السبب في فشلها . عبر أرتوا بفرسانه هذه المخاضة في الرابع أو الخامس من ذى القعدة سنة ٦٤٧ (فبراير سنة ١٢٥٠) وانقض على معسكر المسلمين فجأة فشتت شملهم لأنهم لم يكونوا مستعدين للقتال ، إذ لم يخطر على بالهم أن يهاجموا من هذه الناحية ، وكان قائد الجيش الأمير فخر الدين في الجمام عندما علم بهجوم الفرنج على معسكره ، فخرج مشدوها ، وركب فرسه دون أن يتخذ للدفاع عدته ؛ فدهمه فرسان الفرنج ، فتفرق عنه جنده ، وتكاثر

عليه الرماح والسيوف حتى خر صريعاً ، وانقلبت بهذا هزيمة الفرنسيين إلى نصر باهر ، وفرح أرتوا بهذا النصر السريع ، وملكه حماس الشباب فلم يقف عند نهاية الجسر لحماية العاملين فيه — كما أمره أخوه — وإنما اندفع بفرسانه إلى المنصورة ودخلها ، وتقدم حتى وصل إلى قصر السلطان بها . وكاد النصر النهائي يتم للفرنسيين لولا أن صمدت لهم فرقة المماليك البحرية بقيادة ركن الدين بيبرس ، وحملت على الفرنسيين حملة عنيفة حتى رقتهم عن القصر ، فلما فروا راجعين تعقبهم بالسيوف والدبابيس ، وأقام الأهالي المتاريس في الطرقات ، واشتبك الفريقان في قتال عنيف في شوارع المدينة وأزقتها ، واتخذ السكان حصوناً من منازلهم يلقون من نوافذها بالقذائف والحجارة على الفرنسيين . وانتهت المعركة أخيراً بالقضاء على فرقة الفرسان قضاء مبرماً ، وكان في مقدمة الضحايا الكونت أرتوا قائدها .

وكان الفرنسيون — أثناء هذه المعركة — يجدون ويبدلون كل الجهد لإتمام الجسر حتى يتمكنوا من العبور عليه والإنضمام إلى فرسانهم ، ولكنهم لم يكادوا يشرفون على إتمامه حتى وصلتهم أخبار الهزيمة التي نزلت بجنودهم ، فنال هذا الخبر من شجاعتهم وفقدوا قوتهم المعنوية ، فكانوا يلقون بأنفسهم إلى النيل يبعثون العودة إلى معسكرهم . وبهذه الهزيمة عاد الفريقان إلى ما كانا عليه . كل منهما على شاطئه ، والبحر الصغير يفصل بينهما .

وبعد أيام قليلة وصل الملك المعظم تورانشاه إلى مصر ، واستقر في قصر السلطنة بالمنصورة يوم الثلاثاء تاسع عشر ذى القعدة سنة ٦٤٧ (فبراير ١٢٥٠) . وفرح المصريون بسلطانهم الجديد وبدأوا يستعيدون ثقتهم بأنفسهم .

ولما تورانشاه إلى الحيلة التي سبق أن لجأ إليها المصريون في عهد جده الملك الكامل عندما نزلت بنفس المكان جيوش جان دي برين ، فأمر بأن تصنع سفن بالمنصورة وحملت هذه السفن مفصلة على الجبال إلى بحر المحلة حيث أعيد تركيبها ، وملاأت بالبحار بين وسارت شمالاً ، فلما وفدت سفن الفرنج تحمل الميرة من دمياط خرجت عليها هذه السفن ، فأخذت مراكب الفرنج اخذاً وبيلاً — وكانت اثنتين وخمسين مركباً —

وقتل منها وأسرنحو ألف أفرنجي ، وغنم سائر ما فيها من الأرزاد والأقوات ، وحملت الأسرى إلى العسكر ، فانقطع المدد من دمياط عن الفرنج ، ووقع الغلاء عندهم وصاروا محصورين لا يطيقون المقام ولا يقدرّون على الذهاب .

وأشدت الضائقة بالفرنسيين لانقطاع الميرة من دمياط ، فأرسل الملك لويس إلى السلطان يطلب الصلح ويعرض عليه أن يتنازل عن دمياط مقابل بيت المقدس ، ولكن السلطان رفض هذا الطلب ، فلم يجد لويس بداً من الاستمرار في المقاومة حتى يستطيع إنقاذ ما يمكن إنقاذه ، فأشعل النار في أسلحته وعتاده ، ورحل بجيشه — ليلة الأربعاء لثلاث مضين من المحرم سنة ٦٤٨ (أبريل ١٢٥٠) — متجهاً إلى دمياط ، ولم يكده يصل إلى فارسكور حتى كانت جيوش المصريين قد لحقت به وانقضت على جيشه انقضا صاعقة فقضت على معظمه ، حتى قيل إن من قتل من فرسان الفرنسيين كان أكثر من عشرة آلاف ، كما أسر من الخيالة والرجالة والصناع ما يناهز مائة ألف ، وارتقى الملك لويس وأمراء جيشه تلا هناك وسألوا الأمان فأمنوا ، وأسرو لويس وقواده وحمل إلى المنصورة حيث سجن بدار ابن لقمان التي لا تزال بقاياها قائمة حتى اليوم ، ووكّل بحراسته الطواشي صبيح .

ولم يكن المعظم تورانشاه كآبيه ثباتاً واتزاناً وحكمة ، بل كان شاباً أهوج ، فلم يقدر لزوج أبيه شجر الدر تدبيرها ، ولا للمالِك البحرية جهدهم ، بل أخذ يهدد شجر الدر ويطلبها بمال أبيه ، كما أبعدهم بمالِك أبيه ، وقرب اليه حاشيته التي وصلت معه من كيفا وصار إذا سكر جمع الشمع وضرب رؤوسها بسيفه حتى تنقطع ويقول : « هكذا أفعل بالبحرية » ، فتأمر عليه هؤلاء المالِك البحرية واقتحموا عليه البرج الخشبي الذي كان يقيم به في فارسكور ، فأدرك الشرفي عيونهم ، وصعد إلى أعلا البرج ، فرموه بالنشاب ، وأطلقوا النار في البرج ، فألقى بنفسه من أعلاه وجرى نحو النيل فلحقوا به وقتلوه ، وكان ذلك في التاسع والعشرين من المحرم سنة ٦٤٨ (مايو ١٢٥٠) .

وهكذا كاد المصريون يفقدون بهذه الفعلة النصر الباهر الذي أحرزوه ولم يمحى عليه غير خمسة وعشرين يوماً ، ولكن المالِك سرعان ما تداركوا الموقف فأجمعوا ، على



الملك لويس في الأسر بعد هزيمته

إقامة شجر الدر ملكة على مصر، فكان حدثاً فذاً في تاريخ العالم الإسلامي كله؛ كما عينوا الأمير عز الدين أيبك قائداً أعلى للجيش .

و بدأت المفاوضات بين الملك لويس وبين المصريين ، وتولاها عنهم الأمير حسام الدين بن أبي علي - نائب السلطنة في عهد الملك الصالح - وتم الاتفاق أخيراً على إطلاق سراح الملك وجميع الأسرى على أن يخلوا دمياط وأن يدفعوا أربعة آلاف دينار فدية للملك ، يدفعون نصفها قبل أن يطلق سراحه والنصف الآخر بعد وصولهم إلى عكا . وجمعت الملكة - وكانت مقيمة في دمياط - نصف المبلغ المطلوب ، فأطلق المصريون سراح الملك. ودخل المسلمون ثانية إلى دمياط ، ورفعوا عليها العلم المصري يوم الجمعة الثالث من صفر، بعد أن ظلت في أيدي الفرنج أحد عشر شهراً وتسعة أيام . وهكذا أقلمت فلول الحملة إلى عكا بعد أن ودعها شاعر مصر جمال الدين بن

مطروح بقصيدته المشهورة التي يقول فيها :

| | |
|-------------------------|--------------------------|
| قل للفرنسيس إذا جنته | مقال نصح عن قوول فصيح |
| آجرك الله على ما جرى | من قتل عباد يسوع المسيح |
| أتيت مصرأ تبغى ملكها | تحسب أن الزمر ياطبل ريح |
| فساقك الحين إلى أدهم | ضاق به عن ناظريك الفسيح |
| وكل أصحابك أودعهم | بحسن تدبيرك بطن الضريح |
| سبعون ألفا لا يرى منهم | إلا قتيل أو أسير جريح |
| وفقك الله لأمثالها | لعل عيسى منكم يستريح |
| إن كان باباكم بدا راضيا | فرب غش قد أتى من نصيح |
| وقل لهم إن أضمرؤا عودة | لأخذ ثار أو لفعل قبيح |
| دار ابن لقمان على حالها | والقيد باق والطواشي صبيح |

دمياط في العصر المملوكي:

١ - تخريب مدينة دمياط

وتتابعت الحوادث وعرش مصر مثار نزاع عنيف بين الأيوبيين والمماليك، فخشى المماليك أن ينتهز الفرنج فرصة هذا النزاع فينقضوا على دمياط ثانية، فانفقوا على تخريبها، وأرسلوا إليها فرقة من الحجارين والفعلة، «فوقع الهدم في أسوارها يوم الاثنين الثامن عشر من شعبان سنة ٦٤٨ حتى خربت كلها وحميت آثارها ولم يبق منها سوى الجامع». وهكذا كانت حملة لويس شوفاً على دمياط، ففي أوائلها غادرها أهلها جميعاً، وفي أعقابها - وبعد نحو ستة أشهر من خروج الفرنسيين - هدمت المدينة جميعها. بأسوارها وقلاعها ومنازها وقصورها، ولم يبق منها - كما يذكر المؤرخون - سوى جامعها وهو الجامع المهدم القديم الذي يعرف حتى الآن في دمياط. باسم جامع أبي المعاطي القديم أو جامع الفتح.

٢ - قيام دمياط الجديدة

ويقول المقرئ أن بعض فقراء الناس سكنوا بعد ذلك في أخصاص على النيل قبال المدينة الجديدة، وسموا هذا المكان (المنشية)، ولعل هذا هو الحى المعروف حتى اليوم في دمياط بهذا الاسم.. ولم تلبث هذه المنشية حتى كبرت ونمت وأصبحت. - كما يقول المقرئ - بلدة كبيرة ذات أسواق وحمامات وجوامع ومدارس ومساجد، ودورها تشرف على النيل الأعظم ومن ورائها البساتين، وهي أحسن بلاد الله منظراً، تلك هي دمياط الجديدة، فما قصتها في العصور التالية؟

٣ - دمياط في عهدي المعز أبيك والمظفر قطز

ويبدو أن هذا النحو كان سريعاً ، فوقع دمياط موقع ممتاز من الناحيتين الجغرافية والاستراتيجية ، فهو يتطلب بالضرورة أن تقوم فيه مدينة ، ومدينة كبيرة ؛ يؤيد رأينا هذا الأخبار المتناثرة عن اهتمام سلاطين المماليك الأول بدمياط الحديدية في السنوات التالية مباشرة لهدم المدينة القديمة .

هذه الأخبار تروى أن الملك المعز أبيك - وهو الذى ولى عرش مصر بعد شتجر الدر - قد أقطع دمياط في سنة ٦٥٢ - أى بعد هدم المدينة القديمة بأربع سنوات فقط - إلى الأمير علاء الدين أيد غدى العزى ، ثم تنص على أن ارتفاعها - أى لإبرادتها - كان يومئذ ثلاثين ألف دينا .

وتروى هذه الأخبار أيضاً أن السلطان قطز الذى ولى بعد المعز أبيك قد أرسل في سنة ٦٥٧ (١٢٥٩) المنصورين أبيك وأخاه وأمه إلى دمياط ، واعتقلهم في برج عمره هناك ، وسماه برج السلسلة ، وقد يفهم من هذا الخبر لأول وهلة أن قطز بنى في دمياط برجاً جديداً ، ولكن تسمية هذا البرج ببرج السلسلة تجعلنا نجزم بأنه هو نفسه برج السلسلة القديم ، وأن المماليك الذين هدموا دمياط قد أبقوا هذا البرج ، وأن الذى فعله قطز إنما هو ترميم البرج ، أى ترميمه وإصلاحه .

٤ - في عهد الظاهر بيبرس

وقتل قطز بعد انتصاره على التتار في وقعة عين جالوت ، وولى عرش مصر الظاهر ركن الدين بيبرس البندقدالى ، ويعتبر بيبرس المؤسس الحقيقى لدولة المماليك في مصر ، فقد طالت مدة حكمه ، وقد بذل الجهود القوية للتمكين لهذه الدولة ، ومن وسائله لهذا : العناية الفائقة بتحصين مصر وثغورها ، وقد نالت دمياط نصيبها الموفور من هذه العناية .

أدرك بيبرس أن دمياط الحديدية لا تجمبها أسوار أو حصون ، كما أدرك أن برج السلسلة مع قوته ومناعته قد يقع في أيدي العدو ، ولهذا لجأ إلى طريقة فعالة لحماية مدخل النيل عنده دمياط ، ففي السنة الثانية من حكمه وهي سنة ٦٥٩ (١٢٦١) « أمر بدم فم بحر دمياط ، فخرج جماعة الحجارين وألقوا فيه القراييص حتى يضيق وتمتنع السفن الكبار من دخوله » .

ثم لاحظ بيبرس أن العناية بالأساطيل قد فترت بعد خروج الفرنسيين من مصر ؛ وثغور مصر - وخاصة دمياط والأسكندرية - لا يمكن أن يحميها إلا الأساطيل ، « فأنشأ عدة شوان بشغرى دمياط والأسكندرية ، ونزل بنفسه إلى دار الصناعة ، ورتب ما يجب ترتيبه ، وتكامل عنده بر مصر ما ينيف على أربعين قطعة وعدة كثيرة من الحرايق والطرائد ونحوها » .

وفي شوال سنة ٦٦١ خرج بيبرس وزار الأسكندرية وأشرف على أسوارها وحصونها ، وفي السنة التالية ٦٦٢ (١٢٦٤) خرج إلى دمياط فزارها ، وأمر بالعناية بأبراجها وأسطولها ، وأقام بها - كما أقام بغيرها من الثغور - حامية كبيرة العدد للدفاع عنها . واستعادت دمياط مكانتها شيئاً فشيئاً ، وعاد إليها أسطولها ، وكان مقدم أسطول دمياط - أى قائده أورتيسه - واحداً من كبار رؤساء الأسطول المصرى العام ، ومن دمياط بدأت تخرج الغارات البحرية - كما كان العهد في العصرين الفاطمى والأيوبي - فى عهد بيبرس ، وفى سنة ٦٦٩ (١٢٧٠) خرج الأسطول المصرى من دمياط يريد غزو جزيرة قبرص ، ولكنه لم يوفق ، وأسر كثير من جنده وقواده - ومن بينهم مقدم أسطول دمياط - وبقوا فى الأسر إلى أن تحيل بيبرس فى استنقاذهم فى سنة ٦٧٣ ؛ وعنى بيبرس بشؤون دمياط المدنية عنايته بشؤونها الحربية ، فأمر بعمارة الجسر (الطريق الزراعى) الذى يصل بينها وبين القاهرة .

ه - دمياط في أواخر القرن السابع الهجري الشيخ فاتح الأسمر

وظلت دمياط الحديدية تنمو شيئاً فشيئاً ، وقصدها العلماء والصوفية من كل حدب
وخرج علماءها إلى الأقطار ، فمن وفد عليها في أواخر القرن السابع الهجري (١٣م)
الشيخ فاتح بن عثمان الأسمر التكروري ، قدم إليها من مراكش حوالي سنة ٥٦٧٨ هـ
— أي بعد إنشاء المدينة الحديدية بنحو خمس وعشرين سنة — فأقام بها مدة ، ثم نزع
عنها إلى تونة فلبث بها سبع سنين ، ثم عاد إلى دمياط فأقام في جامعها القديم الذي بقي
بعد هدم المدينة القديمة ، وجعل مقره في وكر بأسفل منارته . وكان هذا الجامع
— منهدمت دمياط — مهتماً لايفتح إلا في يوم الجمعة ، فاعتنى به الشيخ
فاتح ، ورم جدرانته ، ونظفه بنفسه حتى طرد الوطواط الذي كان يقيم بسقوفه ، وساق
الماء إلى صهاريجه ، وبلط صحنه ، وسبك سطحه بالحبس ، ورتب فيه إماما يصل
بالناس الصلوات الخمس ، وأقام هو في بيت الخطابة مواظباً على قراءة الأوراد وتلاوة
القرآن ، وكان يقول : « لو علمت بدمياط مكاناً أفضل من الجامع لأقمت به ، ولو
علمت في الأرض بلداً يكون فيه الفقير أخمل من دمياط لرحلت إليه وأقمت به » ، وكان
هذا الشيخ على خلق عظيم ، فكان يحب الفقر ويتواضع مع الفقراء ، ويتعاطف على
العطاء والأغنياء ، وإذا اجتمع عنده الناس قدم الفقير على الغني ، وإذا مضى الفقير من
عنده سار معه وشيعه عدة خيطوات وهو حافت ، ووقف ينظره حتى يتوارى عنه ، وكان يكرم
الأيتام ويشفق على الضعفاء والأرامل ، ويبذل شفاعته في قضاء حوائج الخالص
والعام من غير أن يمل ولا يتبرم بكثرة ذلك . تزوج في آخر حياته بامرأتين ، وكان يقرأ
في المصحف ويطلع الكتب ، وإنما لم يره أحد يخط بيده شيئاً . توفي ليلة الثامن
من شهر ربيع الآخر سنة ٦٩٥ (فبراير ١٢٩٦) . وخلف ولدين ليس لهما قوت ليلة ، وعليه
دين قدره ألفا درهم ، ودفن في قبره بجوار الجامع القديم .

ومنذ ذلك الحين عرفت ذلك الجامع بجامع الفتح ، وهو تحريف للفظ فاتح — اسم الشيخ —

ثم ظن الناس تخريباً من هذا الاسم المحرف أن هذا الجامع بنى زمن الفتح الإسلامي ، وهو ظن خاطيء يعوزه الدليل التاريخي المادى ، وينفيه ما ذكره المقرئى من أنه لما زار دمياط فى أوائل القرن التاسع الهجرى شاهد بنفسه نقشاً بالقلم الكوفى على باب هذا الجامع يثبت أنه عمر بعد سنة خمسمائة من الهجرة ، أى أنه يرجع إلى العصر الفاطمى ، وهو قول تؤيده الدراسات الأثرية للنقوش والكتابات والزخارف الخشبية التى كانت تزين جدران هذا الجامع حتى وقت قريب ، والتى نقلت إلى دار الآثار العربية بالقاهرة ، فهذه النقوش والكتابات جميعاً من الطراز الفاطمى .

وهذا الجامع يعرف الآن أيضاً باسم جامع أبى المعاطى القديم ، كما يعرف ضريح الشيخ فاتح باسم جامع أبى المعاطى الحديد ، نسبة للشيخ فاتح ، فقد عرف الرجل — لكثرة عطائه — بهذه الكنية (أبو المعاطى)، ولقد غلبت هذه الكنية على الشيخ واسمه ، فأهل دمياط الآن لا يعرفون من هو فاتح ، وإنما يعرفون تماماً من هو (سبلدى أبو المعاطى) .

٦ - دمياط فى القرن الثامن الهجرى

وصف ابن بطوطة لها

و بعد نحو خمس وسبعين سنة من عدم دمياط القديمة كانت دمياط الجديدة قد نمت واكتمل نموها ، وامتدت رحابها ، وكثرت مبانيها ، ودبت الحياة فى أرجائها ، فقد زارها الرحالة المشهور ابن بطوطة فى سنة ٧٢٥ (١٣٢٥) ووصفها وضفا راعا ، فقال إنهما : « مدينة فنيحة الأقطار ، متنوعة الثمار ، عجيبة الترتيب ، آخذة من كل حسن بنصيب » ، ووصف منازلها بقوله : « ومدينة دمياط على شاطئ النيل ، وأهل الدور الموالية له يستقون منه الماء بالدلاء ، وكثير من دورها بها دركات ينزل فيها إلى النيل » .

وقد عرفت دمياط — لأهميتها — في ذلك العهد نظام جوارات السفر ، فقد ذكر ابن بطوطة أنه « إذا دخلها أحد لم يكن له سبيل إلى الخروج عنها إلا بطابع الولى ، فن كان من الناس معتبراً طبع له في قطعة كأغد يستظهر به لحراس بابها ، وغيرهم يطبع على ذراعه فيستظهر به » .

وهذا النص هام من ناحية أخرى ، فهو ينص على أن المدينة كان لها باب عليه حراس ، ولا يمكن أن يكون للمدينة باب إلا إذا كان لها سور ، فهل بني حول المدينة الحديدية سور؟ ومن الذى بناه ومتى بناه؟ هذه أسئلة لا نجد لها جواباً عند مؤرخى العصر المماوكى .

وقد زار ابن بطوطة معالم المدينة المشهورة في ذلك الحين ، ووصفها في رحلته ، فما زاره البرزخ ، قال : « وبخارجها جزيرة بين البحرين والنيل ، تسمى البرزخ ، (وهي رأس البرالحالية) ، بها مسجد وزاوية ، لقيت بها شيخها المعروف بابن قفل ، وحضرت عنده ليلة جمعة ومعه جماعة من الفقهاء الفضلاء المتعبدين الأخيار : قطعوا ليلتهم صلاة وقراءة وذكرًا » .

وهذا الوصف يعطينا أيضاً صورة واضحة للحياة العلمية الدينية التي كانت مزدهرة في المدينة في ذلك الحين ، والتي لا تزال دمياط تحتفظ بها وتشتهر حتى اليوم .

وزار ابن بطوطة — فيما زار أثناء مقامه بالمدينة — زاوية الشيخ جمال الدين الساوى ، وقال إنه : « قدوة الطائفة المعروفة بالقرنلرية (أو القلندرية) وهم الذين يخلقون لحاهم وحواجبهم » .

والشيخ جمال الدين الساوى هو غير جمال الدين شيخه المدفون بدمياط أيضاً — كما يظن البعض — ، ثابن شبة — كما أرجح — مجاهد من الذين جاهدوا ضد حملة أويس ، وقد اهد به العمر إلى عصر الظاهر بپرس .

وزار ابن بطوطة ضريح شطا ، قال : « وبخارج دمياط المزار المعروف بشطا ، وهو ظاهر البركة ، يقصده أهل الديار المصرية ، وله أيام في السنة معلومة المالك » .

وكانت البساتين تحيط بدهياط ، وخاصة في قرية المنية التي لا تزال تعرف بهذا الاسم حتى الآن ، وقد زارها ابن بطوطة ووصفها بقوله : « وبخارجها أيضاً بين بساتينها موضع يعرف بالمنية ، فيه شيخ من الفضلاء يعرف بابن النعمان ، قصدت زاويته وبت عنده » وذكر ابن بطوطة أيضاً أن والي دمياط — وقت مقامه بها — كان يسمى المحسني ، كما ذكر أنه كان من ذوي الإحسان والفضل ، وأنه بنى بدمياط مدرسة على شاطئ النيل ، وقد أقام ابن بطوطة بهذه المدرسة طيلة الأيام التي قضاها بدمياط . وقد غادر ابن بطوطة دمياط إلى فارسكور دون أن يعلم الوالي برحيله ، فأرسل وراءه فارساً من رجاله قدم له هبة مالية يستعين بها على سفره .

· هذا مجمل وصف ابن بطوطة لدمياط وضواحيها في الربع الأول من القرن الثامن الهجري (١١٤م) ، وهو وصف قيم نادر لأنه يبين في وضوح كيف نمت المدينة وازدهرت واتسعت أطرافها ، وكثرت مبانيها ودورها ، ولأنه ينص على أن بيوتها كانت تطل في معظمها على النيل ، وعلى كثرة ما بها من مدارس وزوايا ، وعلى ازدهار الحياة العلمية والدينية بها ، كما أنه يشير إلى كثير من معالم المدينة ، وبعضها باق حتى اليوم ، وبعضها اختفى مع الأيام ، فهو نص هام للمؤرخ والطبوغرافي الذي يريد أن يرسم صورة واضحة لدمياط في القرن الثامن الهجري .

· هذه هي دمياط في أوائل القرن الثامن الهجري قد استعادت مكانتها ، وأصبحت مزدهرة عامرة بالدور والقصور والمساجد والمدارس والمتاجر ، ولم تقف عند هذا الحد بل اتخذت طريقها نحو التقدم حتى غدت في النصف الثاني من هذا القرن ميناء مصر الأولى ، فقد تفوقت على الإسكندرية ، وورثتها في مكانتها ، وتفصيل ذلك أن روح الحروب الصليبية — بعد طرد الصليبيين نهائياً من عكا آخر مدنهم في الشام في عهد الأشرف خليل بن قلاوون — قد ضعفت شيئاً ما ، ولكنها لم تخمد تماماً ، وقد حاول الأوربيون تجديد هذه الحروب في القرن الثامن ، ففي سنة ٧٦٧ أغار على الإسكندرية أسطول ضخيم من قبرص ، واستطاع القبارصة أن ينزلوا إلى البر ويستولوا على المدينة ،

وقد لبثوا بها أياماً قصوها في تخريب المدينة تخريباً تاماً ، ثم عادوا محمّلين بالأسلاب والغنائم والأسرى.

هذه الحملة هزت كيان الاسكندرية هزاً عنيفاً، وأسرت العدد الكبير من سكانها، وشتتت عدداً أكبر ، فضعف شأن المدينة منذ ذلك الحين ضعفاً شاملاً، ولم تعد لها مكانتها الأولى ، وإنما أصبحت دمياط هي الميناء المصرية الأولى ، وقد دفعها هذا العامل الجديد إلى النمو والازدهار دفعاً قوياً.

٧ - في القرن التاسع الهجرى

دمياط ميناء مصر الأولى

ولم يكد يبدأ القرن التاسع الهجرى (١٥م) حتى غدت دمياط المدينة المصرية الثانية بغد العاصمة، وعادت ثانية المقر الذى تخرج منه أساطيل المصريين للغزو في البحر الأبيض المتوسط ، ففي سنة ٨٢٥ (١٤٢٢-١٤٢٣) - في عهد الأشرف برسبای - خرجت أساطيل مصر من دمياط للإغارة على جزيرة قبرص ، والدافع الأكبر لإرسال هذه الحملات هو الانتقام من البارصة لا فعاهه بالاسكندرية في عهد الأشرف شعبان ، ولكن السبب المباشر يتصل أيضاً بدمياط ؛ يروى صالح بن يحيى أن « موجب ابتداء اخان مع صاحب قبرص أن شخصاً من تجار دمياط يسمى أحمد بن الهميم كان له مركب كبير قد أوسقه من طرابلس الشام صابوناً وبضائع بمال كثير ، فلما وصل إلى فم دمياط صادفه مركب من حرامية الفرنج من طائفة البسقاوية ، فأخذ مركب ابن الهميم وتوجه به إلى قبرص ».

وقد أرسل برسبای ثلاث حملات لفتح قبرص : الأولى في سنة ٨٢٦ (١٤٢٤) والثانية في سنة ٩٢٩ (١٤٢٥) ، والثالثة في سنة ٨٣٠ (١٤٢٦) ، وقد خرجت الحملتان الأولى والثانية من دمياط ، أما الثالثة فقد خرجت من الاسكندرية ؛ وقد نجحت الحملة الثالثة في الاستيلاء على جزيرة قبرص. وضمها للملك مصر، وعادت أساطيلها

إلى دمياط في شوال سنة ٨٣٠ (أغسطس ١٨٢٦) ثم انحدرت منها إلى بولاق بحملة بالأسلاب والغنائم والأسرى، وفي مقدمتهم ملك قبرص نفسه (الملك جانوس). وقائد قوات الجزيرة . واحتفلت القاهرة باستقبال رجال الأسطول المنتصرين، وخرج أهلها جميعاً للاحتفال بمواكب النصر التي شقت الشوارع وفي مقدمتها الملك الأسير وقائده يمتطيان بغلين، وأمامهما تاج قبرص وأعلامها ، ويتبعهما ألوف الأسرى .

وإبان قيام الحملة الثانية بالإغارة على قبرص أمر برسباي بتشييد برج عظيم في مدينة الطينة القرية من دمياط، وشحنه بالمقاتلين لمراقبة سفن الأعداء إذا حاولت تهديد السواحل المصرية .

٨ - زيارة المقرئ المقيري لدمياط ووصفه لها

في القرن التاسع الهجري .

وقد زار دمياط في النصف الأول من القرن التاسع الهجري المؤرخ المصري الكبير تقي الدين المقرئ ، وأرخ لها، ووصف الكثير من معالمها في كتابه : الخطط ، وقال إمامنا أحسن بلاد الله منظراً ، ثم قال أيضاً وقد : « أخبرني الأمير الوزير المشير الاستادار يلبغا السالمي - رحمه الله - أنه لم ير في البلاد التي سلكها من سهرة قنبد إلى مصر أحسن من دمياط هذه ، فظننت أنه يغلو في مدحها ، إلى أن شاهدتها فإذا هي أحسن بلد وأنزهه » ، ثم أثبت في كتابه السالف الذكر قصيدة قالها في مدحها ، نقتطف هنا معظم أبياتها لما حوته من وصف نادر لدمياط ومعالمها الهامة في ذلك العصر ، قال :

| | |
|-------------------------------|--------------------------------------|
| سقى عهد دمياط وحياه من عهد | فقد زادني ذكراه . وجدياً على وجدته . |
| ولا زالت الأنواء تسقى بحبابها | دياراً حكمت من حسنها جنة الخلد |
| فيا حسن هاتيك الديار وطيبها | تمكم قد حوت حسناً يجل عن العد |
| فله أنهار تحف بروضها لكا | لمرهف المصفول أو صفحة الخلد |
| وبشيتها الريان يحكى مبتها | تبدل من وصل الأجرة بالصد |

ولاسيما تلك. النواعير إنشأها
 أطارحها شجوى، وصارت كأنما
 وفي البرك الغراء يا حسن نوفر
 سماء من البلور قيا كواكب
 وفي شاطئ النيل المقدس نزهة
 وفي مرج البحرين جسم عجائب
 كأن التقاء النيل بالبحر إذ غدا
 وقد نزلا للحرب واحتدم اللقا
 فظلا كما باتا، وما برحا كما
 فكم قد مضى لى من أفانين لذة
 وكم قد نعمنا فى البساتين برهة
 وفي البرزخ المأنوس كم لى خلوة
 هناك ترى عين البصيرة ما ترى
 فيارب هيء لى بفضلك عودة

فالمقر يزي بشير فى هذه القصيدة إلى معالم المدينة وضواحيها الهامة التى زارها ، وهى
 البساتين ومرج البحرين والبرزخ وشطا ، كما أنه نعم أثناء مقامه بها مجوها الصحور ورياحها
 « التى تطرد الهم والأسى » ، وسماها التى كالبلور ، وشاطئها الذى « يعيد شباب الشيب
 فى عيشه الرغد » ، وأعجب ببشنيها الريان ، وهز عواطفه أصوات النواعير « التى تجدد
 حزن الواله المدنف الفرد » ، ثم أحس أخيراً أن نفسه لم تشبع من هذا الجمال ،
 فتمنى على الله - فى خاتمة قصيدته - أن ينهى له عودة إليها ، وإنما « فى غير بلوى
 ولا جهد » .



٩ - دمياط منقئ السلاطين والامراء

وقد اتخذت دمياط فى القرن التاسع صفة أخرى غير ما عرفنا ، فقد أصبحت منقئ للأمرء المغضوب عليهم ، وسلاطين المالك وأبناء السلاطين المخلوعين عن عروشهم ، يبعدون إليها ليسجنوا فى أبراجها ، أو ليعيشوا فيها أحراراً أو مراقبين :

فى منتصف القرن التاسع نبي إلى دمياط خليل بن الملك الناصر فرج بن برقوق ، فقصى بها المدة الأخيرة من حياته إلى أن وافته منيته بها فى سنة ٨٥٨ ، فدفن بالقرب من قبر الشيخ فاتح الأسمر لمدة ثمانية أيام إلى أن سمح السلطان بنقل جثته ، فنقلت إلى القاهرة ، ودفنت بتربة جده الظاهر برقوق .

وفى سنة ٨٧٣ (١٤٦٨ - ١٤٦٩) استطاع السلطان الملك الأشرف قايتباى أن يرتقى عرش مصر بعد عزل السلطان الملك الظاهر تمر بغا ، وأبعد السلطان المعزول إلى دمياط معزلاً مكرماً ، سافر إليها فى حراسة بطريق النيل ، فلما وصل إليها « سكن فى أحسن دورها ، وكان يركب إلى صلاة الجمعة » ، وفى نهاية هذا العام فر تمر بغا من دمياط إلى الطينة ثم إلى غزة ، فأرسل قايتباى الجند خلفه ، فلحقوا به فى غزة ، وقبضوا عليه ، وعادوا به إلى الإسكندرية ، فسمح له السلطان بالمقام فيها بعد أن اعتذر عن فعلته .

١٠ - الملك المنصور عثمان بن جقمق

يقيم فى دمياط بعد عزله

وكان قد نبي إلى دمياط أيضاً - قبل تمر بغا - الملك المنصور عثمان بن الظاهر جقمق ، فقد ولى السلطنة بعد وفاة أبيه جقمق ، غير أنه لم يلبث بها إلا أياماً ، ثم وثب به الأتابك إينال وخلفه على العرش ، ولقب بالملك الأشرف ؛ ونبي المنصور عثمان إلى الإسكندرية أولاً ، ثم نقل إلى دمياط فقصى بها سنوات طويلة ، ولم يحاول الفرار كصاحبه الظاهر تمر بغا ، وإنما اتصل بالعلماء وقضى بقية حياته يشغل بالعلم ، وحرص

« على الانعزال والمطالعة والتلاوة والصيام ، وصرف أوقاته في الطاعات ؛ وتحريه في نقل العلم ، وإعراضه عن التشاغل بأنواع الفروسية ومتعلقاتها مع تقدمه فيها » .
وقد عرف له سلاطين الماليك قدره ، فبالغوا في إكرامه ، وتركوا له الحرية الكاملة للإنتقال في الثغرومنه ، فقد سمح له قايتباى بزيارة القاهرة في صفر سنة ٨٧٤ (اغسطس ١٤٦٩) ، وكانت قدمته هذه ليسأل السلطان أن يسمح له بالحج ، فأذن له ، وخرج عثمان فحج « في أبهة تامة » ثم عاد فأقام بدمياط كما كان .
وفي ذى الحجة سنة ٨٨٠ احتفل المنصور عثمان في دمياط بمحنتان أولاده احتفالاً عظيماً ، فبعث إليه قايتباى بألنى دينار « بسبب احتياج المهم ، وتوجه إليه ابن رحاب المغنى ، ومشى في الزفة ، وكان له مهم حافل » .
وقد اتخذ المنصور عثمان له حاشية من العلماء والأدباء ، فكانت داره بدمياط حافلة دائماً بمجالس العلم ، ومن اتصل به هناك الأديب المؤرخ محمد بن أبى بكر بن عمر القادري الجوهري الدمياطى ، ولد هذا الأديب بدنجية قرب دمياط في سنة ٨٢٠ ، وتلقى العلم بها وبعض مدن الصعيد ، وحج في سنة ٨٣٤ ، ثم استقر في دمياط ، وناب في القضاء بها وقال الشعر ، « وأتى بالقصائد الحيدة ، وخمس البردة ، ومدح كثيراً من الرؤساء ، وتكسب في سوق الجوهريين وقتاً » .

١١ - المقامة الدمياطية في وصف الثغر ومحاسنه

للقادري الجوهري الدمياطى

وقد مدح القادري المنصور عثمان بقصيدة جميلة (سماها الروض المطور في مدح الملك المنصور) وقدم لها بمقامة في وصف دمياط سماها : (المقامة الدمياطية في وصف الثغر ومحاسنه السنية) ، والقصيدة والمقامة يضمهما مجلد واحد ولا تزالان مخطوطتين ، ولها - إلى جانب قيمتهما الأدبية - أهمية خاصة ، فهما يرسمان صورة شائقة لدمياط في أواخر القرن التاسع الهجرى ، وهذه الصورة في جملتها لا تختلف كثيراً عن الصورة التي رسمها المقرئى لدمياط في أوائل القرن نفسه .

يصف القادري دمياط فيبالغ في مدحها ، فيقول : « لأنها الجنة الصغرى ،
 والمدينة الخضراء ، وريحانة أرواح الشهداء ، وخزانة أرباح السعداء ، رباطها عنوان
 المقربين ، وصرافها ميدان طلاب المجاهدين ، وثياب غربتها من لباس المنة ، وتراب
 تربتها من غراس الجنة » ، ثم يعدد بعد ذلك ما بها من قبور الأولياء الصالحين ،
 كشطا ، وفاتح الأسمر ، وابن قفل ، وحسن الطويل ، وجمال الدين (؟) ، وعبد الله
 الشهيد (؟) ، فيقول : « ونقر عينك من مشاهد شهداء التابعين بنواحيها ، على
 أعلى شاطئ البحيرة التي هي من محاسن ضواحيها ، مشهد شهيد المعركة يوم فتوحها
 ولي الله شطا ، الذي أمن بسره نغرها من عدو العدو الخنذول ، ومن سطاها إذا بسطا ،
 ويستمطر بها الفتح عند مشهدهك (أبي) العطا ولي الله فاتح الأسمر ، الذي يغني سره
 في المهمات المدلهمات إذا اشتد الخطب عن كل أبيض وأسمر ؛ ومن بنى قفل بعد
 فتح ، حامي البرزخ سدها المسدد سديد ؛ ومشهد بدر حسنها عند مسجد الشهداء
 ولي الله حسن الطويل الشهيد ؛ ومشهد جلالها ولي الله جمال الدين ، الذي برحاب
 جنته نوى ، ومشهد عبد الله الشهيد ، الذي استغنى في الجهاد عن دروع الحديد
 بدرع النوى ؛ فما توسل أحد بهؤلاء الأولياء أوزاره ، إلا حقق الله قصده فيما يرجو
 من الخيرات ونخف أوزاره » ، ثم يستطرد بعد هذا فيصف بساكنها وما
 كانت تغص به من « طلع منضود ، وظل ممدود ، وماء من دولها مسكوب ،
 بأحشاء كل جدول وكوب ، ويشقى الغليل من العليل ، ويكرم به البخيل ، وبها
 الهرمان من منظوم عقود يسرها الأحمر ، واللجين والعسجد من منشورها الأبيض
 والأصفر » ، ولا يكاد ينتهي من هذا الوصف المنشور حتى ينظمه شعراً ، يصف فيه
 ما تتيته المدينة من ثمار وأزهار ، كالموز والنخيل والورد والقصب ... إلخ ثم يعود
 إلى وصفه المنشور فيرتفع بدمياط إلى الدرورة ، لأنه يعتقد أنها « مدينة أشبه شيء في
 وصفها بأزيم ذات العباد ؛ مدينة شداد بن عاد ، التي لم يخلق مثلها في البلاد » ثم
 يعود مرة أخرى فينظم هذا الوصف شعراً ، يقول فيه :

يا حسنها بلداً في أفق ههنا . كأنها الشمس حسناً ذات أبراج

كأنها القوس في شكل له وتر وبحره الزاخر الرامى بأمواج .
وينتقل بعد هذا إلى هدفه الثاني ، وهو مدح الملك المنصور عثمان المقيم بدمياط :
فيمدحه بقصيدة تائية طويلة ، ديباجتها إشادة بالشجر ومحاسنه ، ومطلعها :
من ثغر دمياط حيثنا الثنيات بللم ، فلها منا التحيت
والبدر قابل برجها دجى ، فهما والبدر فى الليل أقمار سنيات
والبحر عن بره بالماء روى خبرا مسلسلا : نسفات عنبريات
ونحتم القادرى رسالته الصغيرة بتعليق لطيف شرح فيه أبيات هذه القصيدة
— بيتاً بيتاً — لينين ما فيها من « البديع والمعاني التى تخفى على كثير من شعراء هذا
الزمان » .

١٢ - دمياط في عهد قايتباى

وقد كان مقام المدينة الحديد - كميناء مصر الأولى - دافعاً لسلطين مصر على
العناية الدائمة بدمياط ، وفى مقدمتهم السلطان الأشرف قايتباى ، فقد كان هذا
السلطان من أبرز وأعظم سلاطين المماليك ، وله فى المدن المصرية المختلفة المنشآت
الكثيرة من مساجد ومدارس وحصون وقلاع ، وقد عنى هذا السلطان بدمياط عناية
خاصة فزارها مرتين للإشراف على شؤونها الحربية والعمرائية : زارها فى صفر سنة
٨٧٧ ، ثم زارها ثانية فى جمادى الآخرة سنة ٨٨٠ (اكتوبر ١٤٧٥) ، وكان سفره
إليها وعودته منها بطريق النيل ، فقد خرج فى مائة مركب وفى حاشية كبيرة من أمراء
جيشه ورجال دولته « فلما طلع إلى الثغر لاقاه النائب ، ومد له مدة حافلة ، فأقام
بها أياماً وهو فى أرغد عيش ، وتززه فى غيطان البلد ، وتوجه إلى مكان يصاد به
السملك البورى ، ونزل فى مركب صغير ، وعابن كيف يصاد البورى » .

وقد أمر قايتباى بإنشاء برج العظيم فى الاسكندرية فى سنة ٨٨٢ ، وتم بناؤه
فى سنة ٨٨٤ ؛ وفى نفس السنة أراد أن يتم تحصين شواطئ مصر الشمالية جميعاً ،

ويبدو أن السلسلة الضخمة التي كانت تمتد من برج دمياط إلى شاطئها قد بطل استعمالها ، ونزعت من مكانها - وإن كنا لانعرف في أى عصر نزعتم - فأرسل قايتباى في هذه السنة أميراً من أمراءه لتجديد هذه السلسلة ، يقول ابن إياس في حوادث هذه السنة : « وفيها في المحرم توجه الأمير يشبك الدوادار إلى ثغر دمياط ، وكان السلطان قد جعله متحدثاً عليها ، فلما توجه إلى هناك أنشأ على فم البحر الملح عند برج الملك الظاهر بيبرس البندقدارى سلسلة من الحديد زنتها نحواً من مائتين وخمسين قنطاراً من الحديد ، وكانت هذه السلسلة قديماً هناك ثم بطل أمرها ، فجددها الأمير يشبك الدوادار في هذه السنة ، وحصل بها النفع لطرده مراكب الفرنج الكبار ،

وفي عهد قايتباى بنيت في دمياط أيضاً المدرسة المتبوية - التي لاتزال موجودة حتى الآن - ، بناها قايتباى لولى الله الشيخ إبراهيم المتبولى ، فقد كان من المعتقدين فيه .

١٣ - دمياط تصبح نيابة في أواخر العصر المملوكي

هذه هي دمياط في أوج عظمتها حتى أواخر القرن التاسع الهجرى (١٥ م) ، وقد ارتفعت - لمكانها الجديدة - من ولاية إلى نيابة ، فقد كانت في العصرين الأيوبي والمملوكي الأولى ولاية من ولايات الوجه البحرى ، فقد كان في الوجه البحرى وقتذاك أربع ولايات ، في : منوف ، وأشموم ، ودمياط ، وقطيا ، وكانت كل ولاية يلبها وال أمير عشرة ، أى من صغار أمراء الدولة ، وكانت الأقسام الإدارية في الدولة المملوكية إذ ذاك إما ولايات أو نيابات ، والنيابة أعلى مرتبة ، ويتولاها نائب عن السلطان يكون عادة من الأمراء المقدمين أو أمراء المئات ، وهم أكبر الأمراء قدراً ، ولم يكن بمصر نيابات غير نيابة الأسكندرية ، فقد كانت دمياط ولاية ثم جعلت نيابة في عهد الأشرف شعبان - أى بعد غزوة القبارصة - .
ويبدو أن دمياط جعلت نيابة أيضاً حوالى ذلك الوقت فان تواريخ مصر تبدأ

فى القرن التاسع فتسمى حاكم دمياط نائباً - لوالياً - ، وتشير إلى نيابة دمياط لا إلى ولاية دمياط ، وفى تاريخ ابن لياس مثلاً ذكر لكثير من النواب الذين حكموا دمياط فى القرن التاسع وفى السنوات الأولى من القرن العاشر الهجرى .

١٤ - دمياط فى عهد قانصوه الغورى

وكان قايتباى آخر سلاطين المماليك العظام ، وكان عهده آخر عهود الازدهار ، وبدأت مصر بعده فى التأخر والإضمحل ، وأصاب دمياط وموائىء مصر عامة ما أصاب مصر ، فإذا كان عهد الغورى خيم على هذه الموائىء الخراب ، ووقفت حركة الصادر والوارد بها لعبث الفرنج بشواطئها ، يقر هذه الحقيقة ابن لياس فى تاريخه ، فيقول فى حوادث سنة ٩٢٠ : « وكان فى تلك الأيام ديوان المفرد وديوان الدولة وديوان الخاص فى غاية الانشحات والتعطيل ، فان بندر الاسكندرية خراباً ، ولم تدخل إليه القطائع فى السنة الحالية ، وبندر جدة خراباً بسبب تعبث الفرنج على التجار فى بحر الهند ، فلم تدخل المراكب بالبضائع إلى بندر جدة نحو من ستة سنين وكذلك جهة دمياط » ؛ وقال أيضاً فى حوادث سنة ٩٢٢ : « وكان حسين نائب جدة يأخذ العشر من تجار الهند المثل عشرة أمثال ، فامتنعت التجار من دخول بندر جدة ، وآل أمره إلى الخراب ، وعز وجود الشاشات من مصر والأزر والأنطاع وأخرب البندر ، وكذلك بندر الاسكندرية وبندر دمياط ، فامتنعت تجار الفرنج من الدخول إلى تلك البنادر من كثرة الظلم ، وعز وجود الأصناف التى كانت تجلب من بلاد الفرنج . »



دمياط

في العصر العثماني

وظهر في الأفق حينذاك لخطر جديد أخذ يهدد الدولة المملوكية في مصر ، ذلك هو خطر الدولة الإسلامية الفتية الناشئة ، دولة الأتراك العثمانيين ، وفي نفس هذه السنة التي وصف فيها ابن إياس تأجر الأحوال الاقتصادية في موانئ الدولة .- ومن بينها دمياط - ؛ في هذه السنة - وهي سنة ٩٢٢ (١٥١٧) - انقض الأتراك العثمانيون على مصر وافتتحوها وضموها إلى ملكهم بعد أن قضوا نهائياً على دولة المماليك .

وفي العصر العثماني ازدهرت دمياط بعض الشيء لكونها أقرب الموانئ المصرية إلى آسيا الصغرى ، ولكنها لم تستعد مكانتها الأولى ؛ وقد عانت دمياط - كما عانت مصر كلها في ذلك العصر - من اضطراب الأحوال وكثرة الفتن ؛ وقد ظلت دمياط منى للأمناء الثائرين كما كانت في العصر السابق ؛ وفي كتب التاريخ شوهدت كثيرة تؤيد ما ذكرنا ، نكتفي بذكر واحد منها :

في سنة ١٢١٨ اشتد النزاع بين عثمان بيك البرديسي وبين حاكم مصر التركي خسرو باشا ، وقتل كثير من أتباع الفديقين ؛ يقول الجبرتي : « وهجم المصريون (يقصد المماليك أعوان البرديسي) على دمياط ودخلوها . . . ونهبوها ، وأسيروا نساءها ، وافتضوا الأبقار ، وصاروا يبيعونها كالأرقاء ، ونهبوا الحانات والبيوت والوكائل والمراكب » .



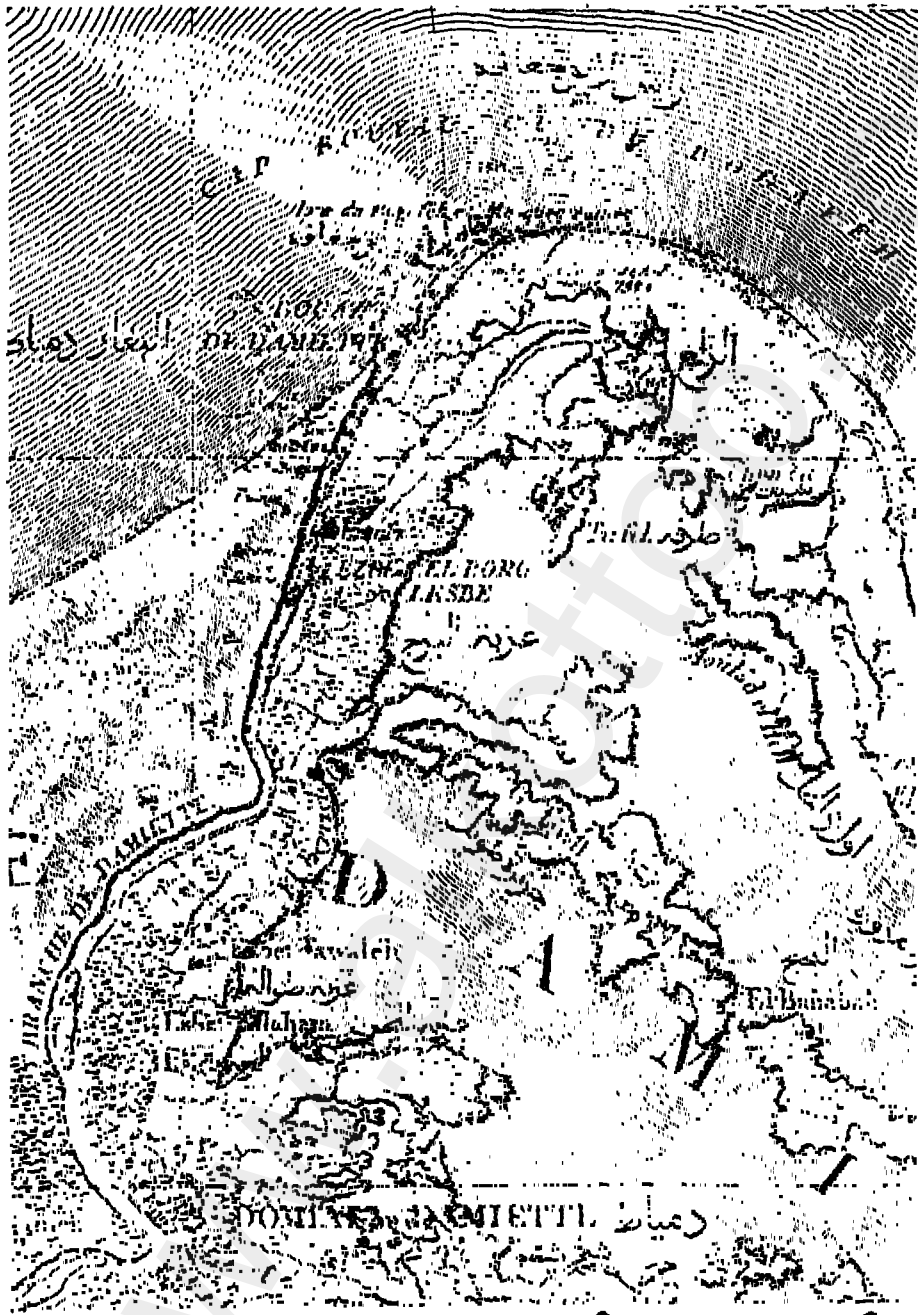
دمياط

في عهد الحملة الفرنسية.

وظلت الحال على هذا إلى أن أتت الحملة الفرنسية إلى مصر ، وقد أثبت علماءها في أبحاثهم أن دمياط كانت ثانی مدينة في القطر المصري بعد القاهرة فقد قاموا بإحصاء السكان في مدن القطر الهامة ، وتبين لهم أن عدد السكان بالقاهرة ٢٦٣,٠٠٠ نسمة وأن عدد سكان دمياط ٣٠,٠٠٠ ، وكانت رشيد هي الثالثة وعدد سكانها ١٣,٠٠٠ ، أما الاسكندرية فكان عدد سكانها ٨,٠٠٠ نسمة فقط . ولهذا عني الفرنسيون بدمياط عناية خاصة ، فأرسلوا إليها بعد الإستيلاء على القاهرة فرقة من الجيش الفرنسي في أوائل اغسطس سنة ١٧٩٨ ، وعين الجنرال (Vial) حاكماً على مدينتي المنصورة ودمياط .

غير أن سكان هاتين المديرتين لم يخضعوا للفرنسيين ، بل قاوموهم مقاومة عنيفة ، وقاموا بثورات خطيرة أقضت مضاجع الفرنسيين وأتعبتهم ، وكانت دمياط وقرى بحيرة المنزلة مقر تلك الثورات ، وكان بطلها ومحركها حسن طوبار زعيم إقليم المنزلة .

وقد حاول فيال حاكم دمياط أن يستميله إليه بكل الوسائل ولكنه لم يفلح وفي الوقت الذي كان حسن طوبار يقود فيه ثورات المنزلة ويحشد أسلطيله بالبحيرة لمهاجمة الفرنسيين قامت الثورة في دمياط نفسها في أوائل سبتمبر سنة ١٧٩٨ ، واشترك فيها أسطول حسن طوبار الذي تحرك في بحيرة المنزلة حتى وصل إلى غيظ النصارى شرقي دمياط ، وتقدم الأهلون ورجال الأسطول — وكانوا جميعاً مسلحين بالبنادق والرماح — نحو دمياط ، وقتلوا الخراس الفرنسيين ، فتقدم فيال بقواته لمقاتلتهم ، ففر بعضهم وركبوا السفن عاثتين ، واتجه فريق آخر إلى قرية الشعراء المحاورة لدمياط ، واتخذوها معسكراً لهم. وفي نفس الوقت ثار أهالي عزبة البرج بميامينهم



خريطة دمياط كما رسمها علماء الحملة الفرنسية في أواخر القرن الثامن عشر

الفرنسية وقتلوا رجالها ؛ واستطاع فيال أن يقتحم قرية الشعراء ، ودخلها بجنده فنهبها وأضرموا فيها النار. ولما سمع أهالي عزبة البرج أن الفرنسيين نجحوا في إخماد ثورة دمياط تركوا قرتهم ورحلوا بأسرهم في السفن إلى سواحل سوريا .

وتقدم الفرنسيون بعد هذا إلى المدن والقرى القريبة من دمياط كبيت الخولي والضاهرية والزرقة ، فأخذوا ثورتها ونهبوها نهباً تاماً ، وقد كتب الجنرال لوجيه في يومياته يصف المساويء التي ارتكبتها الجنرال فيال عند انتقامه من بيت الخولي والقرى المجاورة ، قال : « في اليوم الذي عاد فيه الجنود إلى دمياط بعد هذا النهب ، كانت مدينة دمياط أشبه بسوق أو مولد ، باع فيه الجنود الفرنسيون إلى الأروام مانالته أيديهم من النهب والسلب ، فكانوا يعرضون المواشي والطينور والثيران والبقر والخيل والحمير والغنم والدجاج والأوز . . . وكثيراً من قطع الذهب والفضة التي كانت حلياً للنساء » .

وأرسل نابليون الجنرال دوجا للأشراف على منطقة بحيرة المنزلة ، كما أرسل إلى دمياط بعض السفن المسلحة مدداً للقوة العسكرية هناك ، على أن مركز الفرنسيين ظل مزعزعاً في هذه المنطقة ، يؤيد هذا قول الجنرال لوجيه في يومياته :

« لم تتحسن الحالة كثيراً عما كانت عليه حينما جاء الجنرال دوجا لأول مرة إلى دمياط ، والسلطة الفرنسية ما زالت منكورة . في معظم جهات الدلتا التابعة لهذه المديرية ، وفي دمياط نفسها التي تعتبر من أعظم بلاد القطر المصري لا يأمن الجندي الفرنسي على حياته إذا هو ذهب إلى حي الوطنيين . والحامية الفرنسية مقصاة في حي الأروام » .

علم نابليون من تقرير قواده أن منطقة دمياط لن تخضع للفرنسيين إلا إذا قضى على نفوذ حسن طوبار العسكري في المنزلة ، والمسيطر على بحيرتها بأساطيله ورجاله ، فأرسل قائداً آخر من قواده يسمى (اندريوسى Andreossi) ليشراف على إخضاع هذه المنطقة ؛ واتصل هذا القائد بقواد الحاميات الفرنسية المقيمة بدمياط وحولها ، ووضع الخطة للاستيلاء على المنزلة معقل حسن طوبار ، وقد استطاع الفرنسيون

الدخول إلى المدينة حقاً في أوائل أكتوبر ، ولكن بعد أن خرج منها كل أهلها ، ولم يتركوا بها إلا الشيوخ والنساء ؛ وقد فرحس طويا إلى غزة ، وبقى بها إلى أن أعاد به نابليون إلى مصر بعد فشل حملته على سوريا ، وأقام في بلدته ملتزماً بالسكينة والهدوء ، فقد احتفظ الفرنسيون بابنه رهينة عندهم في القاهرة ، ليتأكدوا من ولائه وهدوئه ، وقد مات طومار في سنة ١٨٠٠ ، فنشرت جريدة الحملة الرسمية (كوريه دلجيت) خبر وفاته .

وقد عني الفرنسيون بعد إخضاع هذه الثورات بتحسين منطقة دمياط فأنشأوا قلعة بعزبة البرج ، وقلعتين على مدخل البوغاز شرقاً وغرباً ، وقد أقاموا هذه القلاع جميعاً على أنقاض الأبراج والقلاع القديمة التي يبدو أنها كانت قد تهدمت وتشتت بنائها في العصر العثماني .



دمياط

في عصر الأسرة المحمدية العلوية

في عصر محمد علي الكبير :

وفي السنين الأولى من عصر محمد علي الكبير حافظت دمياط على مكانتها ، فقد كانت ثاني مدينة في القطر بعد العاصمة - القاهرة - كما كانت ميناء مصر الأولى ، عنها تصدر ، وإليها ترد معظم التجارة الخارجية ، وكان يقوم بها كثير من الخانات والوكائل .

وقد عنى بها محمد علي في أوائل عهده عناية خاصة ، ذكر الحبرتي في حوادث سنة ١٢٣١ (١٨١٦) أن أحد أبناء البلد ، واسمه حسين شلبي عجوة ، اخترع آلة لضرب الأرز وتبييضه ، وقدم نموذجاً لها إلى محمد علي ، فأعجب بها ، وأنعم على مخترعها ، وأمره بتركيب مثل هذه الآلة بدمياط وأخرى برشيد ، ويقول الحبرتي : «إن الباشا لما رأى هذه النكتة من حسين شلبي هذا ، قال : إن في أولاد مصر نجابة وقابلية للمعارف» ، وأمر في الحال بإنشاء مدرسة للهندسة في القلعة لتعليم المصريين العلوم الهندسية ، وهي أول مدرسة للهندسة أنشئت في عصر محمد علي ، ثم تلتها مدارس أخرى .

وفي عهد محمد علي أيضاً أنشئت مدرسة للمشاة في دمياط ، وكانت مهمتها إعداد الضباط لسلاح المشاة ، وكانت تضم ٤٠٠ طالب ، كما أنشئ بها مصنع للغزل يشبه المصانع الآلية الكثيرة التي أنشئت في مدن القطر المختلفة وقتذاك ، وفي عهده (١٢٣٣-١٨١٨) جعلت دمياط محافظة .

غير أن محمد علي اتجه في إصلاحاته كلها إلى النقل عن أوروبا ، سواء أكان ذلك في التعليم أو الصناعة أو الجيش والبحرية . . . إلخ ، ولما كانت الإسكندرية

أقرب الموانئ المصرية إلى أوروبا فقد جباها بعطفه ، وبنى فيها القصور لإقامته ، واتخذها مقراً لدار صناعة السفن ، وحفر ترعة المحمودية ؛ ومنذ تم حفر هذه التربة استعادت الاسكندرية مكانتها القديمة — كميناء مصر الأولى — وساعد على هذا أن البخار استخدم في ذلك الوقت لتسيير السفن ، وحلت السفن البخارية الكبيرة الحجم محل السفن الشراعية ؛ وميناء دمياط ميناء رملية كثيرة الرواسب لا تستطيع السفن الكبيرة الدخول إليها والرسو بشاطئها .

في عصر عباسى باشا الأول :

بدأت دمياط إذن تفقد مكانتها كميناء مصر الأولى ، وغدت الميناء الثانية بعد الاسكندرية ، ولكنها لم تفقد أهميتها الحربية كثغر من ثغور مصر المطلة على البحر الأبيض المتوسط ، ولهذا عني بها عباس باشا الأول العناية كلها؛ فأنشأ بها طريقاً عسكرياً يمتد من المدينة إلى البوغاز ، وأنشأ عباس الأول بدمياط أيضاً قشلاقاً كبيراً على شاطئ النيل؛ ومجموعة من مخازن البارود والمهمات العسكرية كما أنشأ بها مبنى للحجر الصحي ومحلا للجمرك جنوبى هذه القلعة على شاطئ النيل .

في عصر اسماعيل باشا :

وكان عصر اسماعيل العظيم عصر إصلاح مبدئى ، وقد نالت دمياط حظها من هذا الإصلاح ، فوصلت السكة الحديدية والتلغراف إلى بر المدينة الغربى (السنانية) وبالقرب من محطة السكة الحديد أنشئت في عصر اسماعيل ثكنات جديدة للجند ، وإلى جانبها أقيم مستشفى عسكري يسع خمسمائة سرير ، وأوصلت أسلاك البرق إلى قلاع البوغاز جميعاً — وخاصة قلعة عزبة البرج — ، وأجريت إصلاحات كثيرة بهذه القلعة ، وعمر جامعها القديم والمنزل القائم وسط مبانيها ، وأنشئت إلى جانب الأبراج القديمة قلاع حصينة جديدة ، وزودت هذه القلاع جميعاً بالمدافع

العظيمة ذات العيار الكبير والمرى البعيد، وقد وضع تصميمات هذه القلاع أمير اللواء محمد باشا المرعشلى باشمهندس عموم الاستحكامات وقتئذ .
وفي عهد إسماعيل أيضاً أنشئ عدد من الفئارات على طول الشاطئ الشمالى لمصر، ومن بينها فنار دمياط ، ويمتاز على غيره من هذه الفئارات بأن نوره يظهر ويختفى، ويدور دورة كاملة مدتها دقيقة واحدة .
وفي أواخر سنة ١٢٥٩ (١٨٤٣) - فى عصر إسماعيل - انشئ مجلس بلدى دمياط .

فى عهد توفيق باشا :

وفى ابريل سنة ١٨٨٠ زار الخديو توفيق باشا دمياط ، وبعد هذه الزيارة بقليل قامت الثورة العرابية ، وفى إبانها سافر آلأى عبد العال حلمى - أحد أبطال الثورة - إلى دمياط فى اكتوبر سنة ١٨٨١ للإشراف على حمايتها وتحصينها ، وقد استقر هذا الآلأى فى ثكنات المدينة .

ولما دخل الانجليز الاسكندرية وانتصروا فى وقعة التل الكبير ، ضعفت الهمم ، وبدا أن المقاومة لم تعد مجدية ، ولكن البطل عبد العال حلمى قائد دمياط أبى التسليم فى أول الأمر ، وحاول أن يقنع الخند والأهلين أن عرابى لايزال يقاوم ، ودعاهم للقتال ، ولكن أخبار تسليم طابية الحميل وصلت إلى دمياط ، فضعفت العزائم ، وأرسل الجنرال (وود) فرقة من جيشه إلى دمياط ، وأرسل قائدها - وهو فى السنانية - إلى عبد العال حلمى يطلب إليه التسليم ، فرفض أيضاً ، فعبر الانجليز النيل إلى دمياط ودخلوا الثكنات وقبضوا على عبد العال ، وأرسلوه إلى القاهرة. حيث حوكم مع زعماء الثورة ، وحكم عايه بالنفى ، فنفى إلى (كولبوا) ميناء سيلان، وبها توفى ودفن فى ١٩ مارس سنة ١٨٩١ ؛ أما آلأى دمياط فقد سرح الانجليز جنوده ، وأمروهم بالعودة إلى بلادهم ، ثم خربوا ثكنات السنانية ودمياط وهدموها جميعاً بعد أن جردوها من سلاحها تجرئداً تاماً ، وأتلفوا مدافعها .

كلمة أخيرة

بين الجديد والقديم

هذه هي دمياط حتى أواخر القرن التاسع عشر ، أما دمياط القرن العشرين ، دمياط المعاصرة ، دمياط فؤاد الكبير وفاروق العظيم ، فهي ماثلة بين أعيننا ، وهي لا تزال تخطو نحو الازدهار والمجد خطوات وثيدة ، ولكنها وثيقة ناجحة .

ونحن إن كنا نأمل - مع أهل دمياط - في شيء ، فذلك أن يعنى أولو الأمر بتنفيذ المشروعات الإصلاحية التي تعيد للمدينة سابق مجدها ، وخاصة مشروع الميناء ، ومشروع طريق دمياط بورسعيد ، ومشروع المحارى . . . إلخ ودمياط في رأينا أيضاً مدينة صالحة جداً لإنشاء جامعة بها . إن الإسراع بتنفيذ هذه المشروعات يطفردمياط طفرة سريعة إلى الأمام .

أما دمياط القديمة فلها علينا أيضاً حقوق ، ومن حقها علينا أن تعنى الجامعات بعمل حفائر علمية بها وبتنيس لتحديد موقع المدينتين ومعالمهما القديمة ، وأن تعنى مصلحة الآثار العربية بالمحافظة على ما بقى بالمدينة من وكائل وخانات ومنساجد ، فهي جميعاً صورة جميلة لدمياط القديمة ، ومن الأسف أن الدمياطيين أهملوا هذه الناحية إهمالاً تاماً في السنوات الأخيرة ، فتركوا وزارة الأوقاف تبيع الوكائل القديمة وتهدمها دون أن تستدعى مصلحة الآثار لإبداء رأيها ودراسة هذه المنشآت والمحافظة عليها ، أو تصويرها ودراستها قبل هدمها ؛ كما تركوا مهندسى البلدية يهدمون منارات المساجد القديمة ومبانيها دون تقدير لأهميتها الأثرية والفنية والتاريخية .



تاريخ المدينة الاقتصادية

www.alkottob.com

التاريخ التجارى

كان يقع على ساحل مصر الشرقى ثغور ثلاثة : دمياط وتينيس والفرما ؛ وكانت دمياط فى العصور القديمة أقل هذه المدن أهمية ، غير أنها جميعاً لعبت دوراً خطيراً فى تاريخ مصر التجارى فى العصور القديمة والوسطى ، وذلك لأن تجارة الشرق الأقصى الوافدة عبر البحر الأحمر كانت تصل إما إلى عيذاب ، ومنها تحمل بطريق القوافل إلى أسوان ، ثم تنحدر فى السفن شمالاً إلى العاصمة عند قمة الدلتا ، ثم إلى دمياط أو الاسكندرية ، وإما أن تصل إلى القلزم (السويس الحالية) حيث تحمل بطريق القوافل إلى الفرما ، أو إلى العاصمة ثم تشحن بطريق النيل إلى دمياط أو الاسكندرية .

وكانت التجارة الواصلة إلى الفرما أو دمياط تصدر إلى سواحل البحر الأبيض المتوسط الشرقية ، وخاصة سوريا وآسيا الصغرى واليونان ؛ وإليهما كانت ترد بضائع هذه الأقطار ، وقلما كانت ترد إلى هاتين المدينتين أو تصدر عنهما سفن غرب أوروبا ، فقد كانت الاسكندرية هى مركز الاتصال التجارى بين مصر وغرب أوروبا ، فهى أقرب إليه من دمياط ، أما تينيس فكانت تصدر عنها إلى الشرق منتجاتها الصناعية وخاصة المنسوجات .

وقد حافظت هذه المدن على مكانتها التجارية فى العصور القديمة ، فلما كان الفتح العربى بدأت دمياط تحتل مكان الصدارة بين هذه المدن الثلاث ، وخاصة أن الفرع البلوزى القديم الذى كان ينتهى عند الفرما أخذ فى الاضمحلال شيئاً فشيئاً ، ثم طمرته الرمال نهائياً فى الوقت الذى اتسع فيه فرع دمياط وأصبح طريق الملاحة بين العاصمة والبحر .

وقد ضمدت دمياط لغارات البيزنطيين والصليبيين عليها ؛ أما الفرما وتينيس فقد نالت منهما هذه الغارات ، فساعدت على إضعافهما ، وقد نزل الفرنج أخيراً

بالفرما سنة ٥٤٥هـ فنهبها وأحرقوها ، ثم خربها تخريباً تاماً الوزير شاور في منتصف القرن السادس الهجرى ، وكللك تينس تداول على تخريبها البيزنطيون ثم الفرنج ، إلى أن كانت سنة ٦٢٤هـ فأمر الملك الكامل محمد الأيوبي بتخريبها وهدم حصونها ، فرحل أهلها إل دمياط ، وهكذا زالت من الوجود هاتان المدينتان : الأولى في القرن السادس الهجرى والثانية في القرن السابع .

ورثتها دمياط فغدت الميناء المصرية الوحيدة في الركن الشمالى الشرقى من البحر الأبيض المتوسط ، فنشطت تجارتها وازدهرت ، ثم لم تليث الحروب الصليبية التى توالى عليها أن أثرت فيها ، وهدمت دمياط القديمة بعد آخر حملة من هذه الحملات على مصر ، ثم انشئت جنوبها مدينة جديدة ظلت تنمو شيئاً فشيئاً ، وذلك لأن موقعها الجغرافى يستلزم قيام مدينة في هذه البقعة رغم قسوة الحروب وأحداثها .

ولما خرب القبارصة الاسكندرية في القرن الثامن الهجرى فقدت أهميتها التجارية وأفادت دمياط من هذا الحادث ونتائجه ، فغدت منذ ذلك الحين ميناء مصر الأولى ، ونشطت تجارتها مع الغرب والشرق معا ، وزادت أهميتها أيضاً بعد الفتح العثمانى لمصر لكونها أقرب إلى مركز الدولة الحاكمة من الاسكندرية ، فأنشئت بها الوكائل وللقنادق والخانات التى كانت آثارها لاتزال قائمة بها حتى عهد قريب جداً .

وظلت دمياط تحتفظ بمكانتها التجارية حتى سنوات الفتح الفرنسى لمصر في أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر ، فقد قام علماء الحمسة الفرنسية - كما سبق أن ذكرنا - بإحصاء السكان في مدن مصر الكبيرة ، وأثبت هذا الإحصاء أن دمياط كانت ثانى مدينة بعد العاصمة - القاهرة - وتليها رشيد ثم الاسكندرية .

واتجه محمد على باشا في إصلاحاته وصلاته التجارية إلى بلدان غرب أوروبا ، ودفعت هذه السياسة إلى العناية بمدينة الاسكندرية ، فاجتذت تستعيد مكانتها القديمة - وخاصة بعد إنشاء ترعة الحمودية سنة ١٨٢٠ - وبدأت دمياط تضمجج تجارياً

شيثاً فشيئاً ، ثم زاد في اضمحلالها التجاري مع مرور السنين عوامل كثيرة أخرى :
أهمها أن البخار الذي اكتشف مع مولد القرن التاسع عشر استعمل في تسيير السفن ،
ثم اخذت السفن البخارية يكبر حجمها وغطاسها ، وبذلك اتجهت اتجاهها طبيعياً
إلى ميناء الاسكندرية ، وصدفت نهائياً عن ميناء دمياط لأنها ميناء رملية لاتصلح
لاستقبال السفن الكبيرة ، ومدخلها ضحل غير عميق بتأثير الرواسب السنوية التي
يأتي بها النيل ، وتأثير الصخور التي القاها الظاهر بيبرس عند هذا المدخل في القرن
السابع الهجري (١٣م).

ثم أنشئت قناة السويس وأنشئت معها ميناء جديدة على ساحل البحر الأبيض
المتوسط هي ميناء بورسعيد ، فسلبت هذه الميناء الحديد ما بقي لدمياط من مجد
تجاري ، وخاصة بعد ما وصلت السكة الحديد بين بورسعيد وداخل القطر ، وفي
سنوات الحرب الكبرى الأولى انشئت سكة حديد فلسطين ، فتعاونت مع العوامل
السابقة على القضاء نهائياً على مركز دمياط كميناء تجاري يتعامل مع بلدان البحر
الأبيض الشرقية .

تضافرت هذه العوامل جميعاً على القضاء على تجارة دمياط الخارجية ، ولكن
نشاط أهلها الطبيعي الموروث اتجه إلى النهضة بتجارة المدينة الداخلية وصناعاتها
حتى أصبحت من مدن مصر الأولى في هاتين الناحيتين .

وقد بدأت الحكومة المصرية منذ سنوات تشعر بمبلغ الخسارة التي أصابت دمياط
كميناء تجاري له أهميته ، فأخذت تفكر في خير الوسائل لحياتها ، وبدأ هذا التفكير
في عهد الملك المصلح فؤاد الكبير ، فاستدعى عدد من الخبراء الأجانب في سنة
١٩٢٦ لدراسة الميناء واقتراح خير الحلول لتعميق البوغاز ، وزار لجنة الخبراء
ميناء دمياط كما زارت كثيراً من الموانئ الاوربية الشبهية بدمياط والواقعة عند
مضبات الأنهار ، وقدمت تقريرها النهائي حوالى سنة ١٩٣٠ ، وفيها تقترح :

— العمل على تعميق البوغاز وبناء رصيفين طويلين داخل البحر لتمر من بينهما
السفن الكبيرة إلى البوغاز .

— أو انشاء ترعة جديدة تخترق البر غربى جنوبى طابية الشيخ يوسف وتنصب فى لبحر الأبيض المتوسط غربى رأس البر الحالية ، لتكون بمثابة مصب جديد ومدخل صالح للسفن الكبيرة .

وحوالى نفس الوقت قدم المهندس المصرى الكبير احمد راغب بك مشروعاً آخر لخرق ترعة ملاحية عبر بحيرة المنزلة ، يقوم على ضفتيها طريقان يصلان بين دمياط وبورسعيد ، والمشروع عظيم جداً ويحقق الأهداف المطلوبة من إحياء ميناء دمياط وربطها بالعالم الخارجى وبداخل القطر ، وقد فصل راغب بك الحديث عن مشروعه ومزاياه فى كتاب ضخيم مزود بالخرط والاحصاءات والصور الإيضاحية أصدرته جمعية المهندسين الملكية .

ومع هذا كله فان الحكومة لم تأخذ باقتراحى الخبراء ولا باقتراح راغب بك ، وأنشأت طريقاً برياً يصل بين بورسعيد ودمياط ، وعمر فى معظمه بالحجر المتناثرة فى بحيرة المنزلة ، وقد أثبتت الحوادث والسنون عيوب هذا الطريق : وأنه لم يحقق الأغراض التى أنشئ من أجلها ، فعسى أن تعنى الحكومة من جديد باعادة التفكير فى مشروع راغب بك والعمل على تنفيذه ، فهو فى نظرنا خير المشروعات التى قدمت حتى اليوم لإحياء ميناء دمياط وإعادةها إلى سابق مجدها التجارى الخارجى .

التاريخ الصناعى

وقد اشتهرت دمياط فى كل العصور بأنها كانت مدينة صناعية هامة ، وامتازت خاصة بصناعة النسيج ، والنصوص التى وصلتنا عن ازدهار هذه الصناعة فى دمياط وما جاورها ترجع فى معظمها إلى العصر العربى ، غير أننا نستطيع أن نقول واثقين أن دمياط ومنطقتها اشتهرت بصناعة النسيج منذ عهد الفراعنة : وأن هذه الصناعة كانت قائمة بها فى العصرين اليونانى والرومانى ، وما ازدهارها فى العصر العربى إلا استمرار وتقدم لما كانت عليه فى العصور السابقة ، ودليلنا فى هذا أن منطقة دمياط من أصلح المناطق لقيام صناعة النسيج ، فهذه الصناعة تحتاج إلى جو معتدل وافر الرطوبة ،

وهي غالباً تقوم في المدن الخاورة للمجاري المائية ، لحاجة هذه الصناعة للماء ، ولأن هذه المجاري المائية تكون عادة وسيلة سهلة ورخيصة لنقل منتجات مصانع النسيج إلى مختلف الأسواق ؛ وهذه الشروط جميعاً كانت تتوفر في دمياط والمنطقة المحيطة بها منذ أقدم العصور .

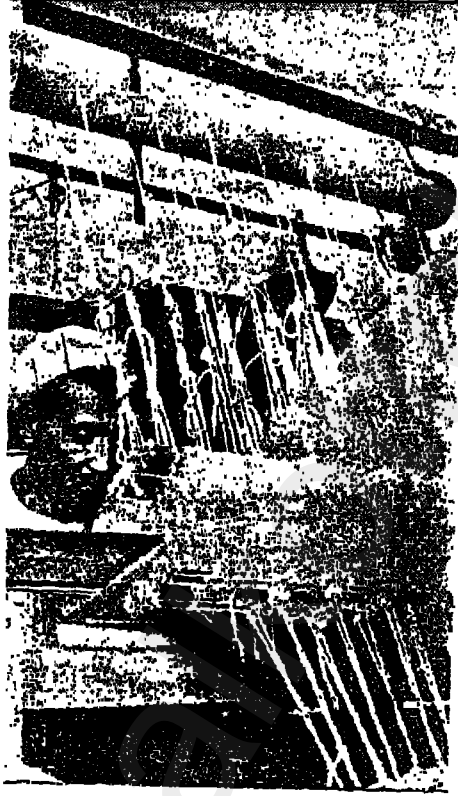
ويؤكد زائنا أيضاً ان معظم المؤرخين العرب يشيرون إلى أن القائمين بهذه الصناعة في دمياط والمدن المحيطة بها في العصر العربي الأول كانوا في معظمهم من الأقباط سكان البلاد الأصليين ، فهم كانوا أصحاب هذه الصناعة المهرة فيها ، ثم ظلوا القائمين عليها بعد الفتح العربي بقرون .

وقد ساعد على قيام صناعة المنسوجات في منطقة دمياط قرب المادة الخام ووفرها - وهي الكتان - فقد كانت منسوجات هذه المنطقة كلها من الكتان ، إلا أن يدخل في نسجها خيوط من الحرير أو الذهب أو الصوف ؛ والكتان كان يزرع بوفرة - في تلك العصور - في أراضي شرق الدلتا أو الفيوم .

ونمت هذه الصناعة وازدهرت ازدهاراً عظيماً في العصر العربي في مدينة دمياط والمدن المحيطة بها في بحيرة المنزلة وحولها ، وخاصة : شطا وتينيس وديبق وتونة وبورة ودميرة . وكانت كل مدينة من هذه المدن تختص بإنتاج نوع بعينه من المنسوجات ، فدمياط تنتج المنسوجات البيضاء وحدها ، وتينيس تنتج المنسوجات الملونة بألوانها المختلفة ، وديبق امتازت بالمنسوجات الصفيقة المتينة . . وهكذا .

وطبعا نسب كل نوع من هذه الأقمشة إلى المدينة التي تنتجها ، وشهرتها ، فنستمتع في كتب المؤرخين عن : القماش الديبقي والدمياطي ، والثياب الشطوية . . إلخ . وإن لم يتبع هذا من أن بعض هذه المدن كانت تصنع الثياب المشهورة بصنعها البعض الآخر .

هذه الخلقائق كلها يرددها المؤرخون والرحالة من العرب وغير العرب منذ القرن الثاني للهجرة . فابن حوقل - وهو من جغرافيا القرن الرابع - يقول : « تينيس ودمياط . . : وهنما يتخذن رفيعا الديبقي والشرب والمصبغات من الخلال التسقية التي ليس



صناعة النسيج ، صناعة قديمة قدم المدينة نفسها

في جميع الأرض ما يدانيها في الحسن والقيمة . . . وضياعها شطا ودبق ودميرة وتونة
يوما تقاربها من تلك الجزائر ، يعمل بها الرفيع من هذه الأجناس ، ثم نص على
أن نسيج تنيس ودمياط كان يفوق نسيج هذه المدن والقرى جميعاً ، فقال : « وليس
ذلك بمقارب للتنيسي والدمياطي » .

ووصف المقدسي — وهو من جغرافي نفس القرن — تنيس وصفاً جميلاً يدل
على عظم مكانتها في ذلك العصر ، قال : « تنيس . . . مدينة وأى مدينة ، هي
بغداد الصغرى ، وجبل الذهب ، ومتجر الشرق والغرب ، أسواق ظريفة ،
وأسمالك رخيصة ، وبلد مقصود ، ونعم ظاهرة ، وساحل نزيه ، وجامع نفيس ،
وقصور شاهقة ، ومدينة مفيدة رفيقة ، إلا أنها في جزيرة ضيقة ، والبحر عليها كحلقة
ملولة قلدة ، والماء في صهاريج مغلقة ، أكثر أهلها قبط . . . وبها يعمل الثياب
والأردية الملونة » وترك المقدسي تنيس إلى دمياط ، فرآها تفضل أختها في كثير ،
فقال مقارناً : « دمياط . . . تسير في هذه البحيرة (بحيرة تنيس) يوماً وليلة . . .
إلى مدينة أخرى ، هي أطيب وأرحب ، وأوسع وأفسح وأحزب ، وأكثر فواكه ،
وأحسن بناء ، وأوسع ماء ، وأحلى صناعاً ، وأرفع بزاً ، وأنظف عملاً ، وأجود
حامات وأوثق جدارات ، وأقل أذابات من تنيس ، عليها حصن من الحجارة ،
كثيرة الأبواب » .

ولسنا نعرف بالتحديد عدد مصانع النسيج في دمياط في القرون العربية الأولى ،
ولكن المسعودي ذكر أن تنيس كان بها نحو خمسة آلاف منسج ، فإذا تذكرنا قول
المقدسي إن دمياط كانت أوسع من تنيس وأفسح ، وأحلى صناعاً وأرفع بزاً ،
استطعنا أن نقول إن دمياط كان بها في نفس الوقت نحو ستة آلاف منسج على أقل
تقدير .

وكانت هذه المصانع تنتج الأقمشة الشعبية كما كانت تنتج الطرز الملوكية
مما يلبسه الولاة وأسراهم ، وبما يخلعه هؤلاء الولاة على الأمراء ورجال الدولة ،
أو مما يهدى إلى الخليفة والسفراء والملوك .

واختصت دمياط والمدن المحيطة بها منذ أوائل العصر العرني بنسيج كشوة الكعبة ، ومع أن مصر كانت ولاية تابعة للخلافة العباسية ، فإن الخلقاء العباسيين كانوا يأمرؤن بصناعة الكسوة التي يرسلونها إلى الكعبة في مصانع دمياط ومدنها ، ولم تكن مدينة من هذه المدن تستأثر وحدها بصناعة الكسوة ، بل كانت جميعا تتبادل هذا الشرف ، فهي مرة تنسج في شطا ، ومرة أخرى في تنيس أو تونة أو دمياط . . . إلخ

وكانت دمياط — كما ذكرنا — تنسج المنسوجات البيضاء وحدها ، كما كانت تنيس تصنع المنسوجات الملونة ، وكان ينسج في دمياط وتنيس نوع من الثياب الدقيقة الرقيقة يسمى البدنة ، يباع الثوب منه — إذا نسج من الكتان وحده — بمائة دينار ، وإذا نسج من الكتان والذهب بمائتي دينار ، ويقول ابن زولاق : « ويباع الثوب الأبيض بدمياط وليس فيه ذهب ثلاثمائة دينار » .

ويبدو أن دبيق كانت تمتاز علي رصيفتها دمياط وتنيس في أول العصر العرني بجدوة نسيجها وماتته ، ولهذا أطلق العراقيون في ذلك العصر على إحدى قرى بغداد اسم (دبيقية) وكانوا يبيعون منسوجاتها على أنها دبيقية لتروج في السوق رواج منسوجات دبيق المصرية المشهورة بالجدوة والماتنة .

روينا أن المسعودي ذكر أن تنيس كان بها خمسة آلاف منسج ، وقد رنا نحن أن مناسج دمياط كانت تزيد على هذا العدد ، فإذا أضفنا إلى هذه وتلك مناسج المدن المحاورة المحيطة بدمياط كتينيس ودبيق وبورة وتونة وذميرة استطعنا أن نعرف أن إنتاج هذه المنطقة من المنسوجات في ذلك العصر كان إنتاجاً ضخماً يغطي حاجة السكان ويفيض منه قدر كبير يصد إلى الخارج ، ولستنا نقول هذا استنتاجاً وإنما يؤيدنا فيه أقوال المؤرخين ، وكانت أكبر كمية من هذه المنسوجات تصدر إلى العراق مقر الخلافة العباسية . وبلغت منسوجات دمياط شهرة عظيمة في بلاد فارس حتى أن أكبر مدينة فارسية لصناعة النسيج — وهي كازرون — كانت تسمى : (دمياط الأعاجم) وكانت منسوجات دمياط وما حوفا تفضل أيضاً إلى جدة ، وقد تحمل منها إلى الشرق

الإقصي ، فالقدمى يروى أن الضريبة التي كانت تؤخذ بثغر جدة «على سبط ثياب الشطوى ثلاث دنانير ، ومن سبط الديبى ديناران» .

وكانت مصانع النسيج في المدن المصرية في العصر العربي تسمى : (دار الطراز) وكان في كل مدينة من هذه المدن نوعان من هذا الدور : دار طراز الخاصة ، ودار طراز العامة ؛ والراجح أن النوع الأول - وهو دار طراز الخاصة - كان ينتج المنسوجات التي تصنع منها كسوة الكعبة أو ملابس الخلفاء والوزراء والولاة ونسائهم أو الخلع التي تخلعها هؤلاء جميعاً على القواد والعلماء وكبار رجال الدولة أما النوع الثانى - وهو دار طراز العامة - فكان ينتج المنسوجات التي تباع للشعب أو تصدر للخارج .

وكانت هذه الدور جميعاً ملكاً للحكومة تشرف عليها ، وتعين موظفيها : وتخرج عمالها ؛ كما كان يقوم إلى جانب هذه الدور مناسخ أهلية يعمل فيها الأهليون لحسابهم - النساء يقومون بالغزل والرجال يقومون بالنسيج - . ولكن الحكومة كانت تشرف أيضاً على هذه المصانع الأهلية ، فكانت تمد النساخين بالمواد الخام ، فلا يستعملون منها إلا ما كاد عليه نجاتم السلطان ، أما مصنوعاتهم فما كانوا يستطيعون بيعها إلا عن طريق موظف الحكومة المعين لذلك . أما الأقمشة المعدة للتصدير فكانت تخضع لنظام حكومى دقيق ، كل ذلك للمحافظة على القيمة الصناعية للمنتجات وعلى المستوى الرفيع الذى اكتسبته . وامتازت به منسوجات هذه المنطقة .

وقد ذكر ياقوت بنى بمعجم البلدان أن هذه المصانع الأهلية في دمياط كانت تقوم قبلى المدينة على الخليج الذى كان يمر عبر المدينة ويصب في بحيرة تنيس ، كما ذكر أن هذه المصانع كانت تسمى «بالمعامل» قال : «ومن ظرف أمر دمياط أنه في قبلها على الخليج مستعمل فيه غرفة تعرف بالمعامل يستأجرها الخباكة لعمل الثياب البشرب ، فلا تكاد تنجب إلا بها ، فإن عمل بها ثوب وثوب منه شبر ، وينقل

إلى غير هذه المعامل ، علم بذلك السمسار المتباع للثوب فينقص من ثمنه لاختلاف جوهر الثوب عليه.

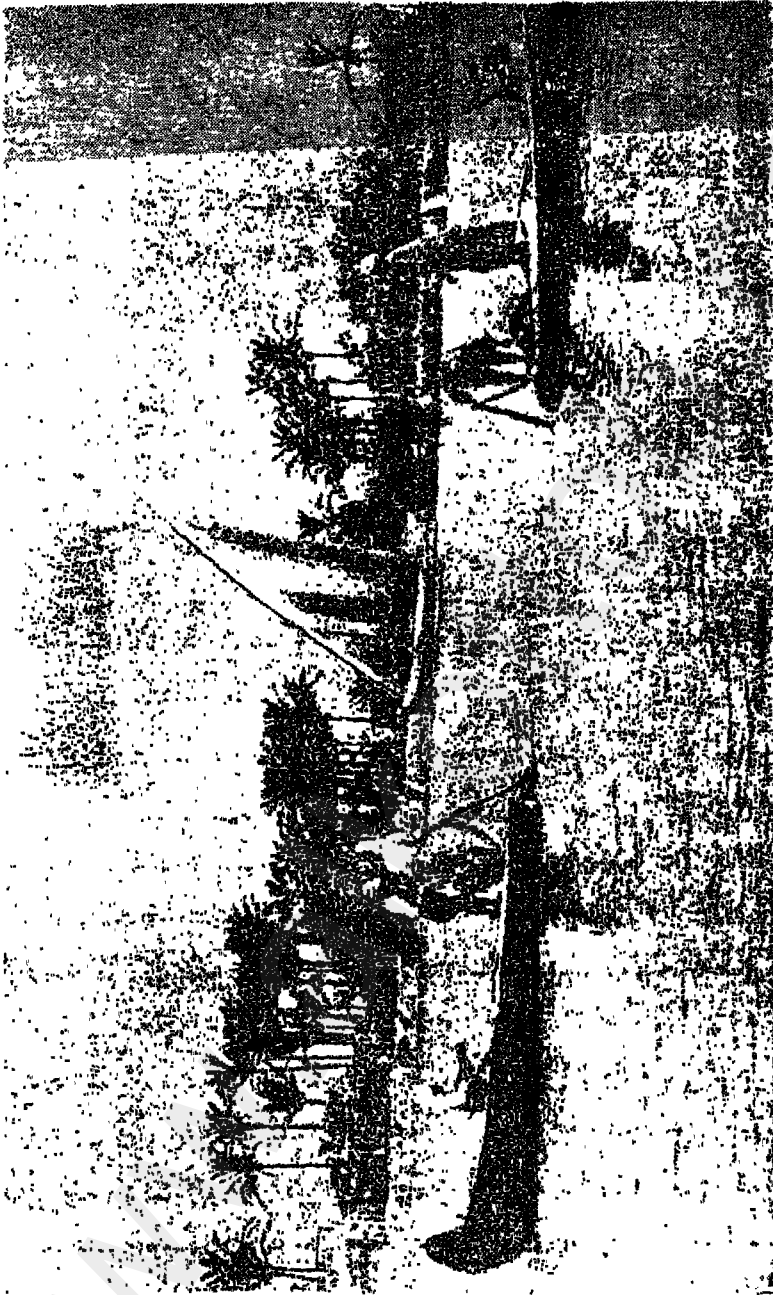
وعندما استقل للفلسطينيون بمصر عنوا بعناية خاصة بصناعة النسيج وبدور الطراز، فقد امتازت الحياة في عصرهم بالبلدخ، والتزرف، . وسن خلفاؤهم تقاليد خاصة للاحتفال بالمواسم والأعياد ، وكانوا يسبقون في هذه المناسبات الهدايا. والخلع من منسوجات دمياط. وتيس ودييق على وزرائهم وكبار رجال دولتهم .

وظل الحال بجلى هذا في العصر الأيوبي. وإن كانت الحروب الصليبية التي توالى على دمياط. قد أثرت في نشاط هذه الصناعة . وفي نهاية هذه الدولة هدمت دمياط فهدمت بتهديمها . مصنع النسيج بطبيعة الحال .

ولكن الموقع الجغرافي كما ذكرنا يساعد على قيام هذه الصناعة في هذه البقعة ولهذا لم تلبث أن قلمت صناعة النسيج ثابتة في دمياط الجلدينة ، ولكنها لم تستطع أن تستعيد سابق مجدها . أما تيس فقد هدمت بمصانعها ومبانيها في عهد الملك الكامل محمد الأيوبي .

وظلت دمياط تشتهر أيضاً بصناعة النسيج بطول العصرين المملوكي والعثماني ، وهذا يفسر لم أنشأ محمد بجلى فيها مصناً آلياً جديداً لصناعة الغزل . ومصانع النسيج الأهلية المتناثرة في دمياط حتى اليوم هي الأثر الباقي بجد هذه الصناعة والمنحدر مع المدينة من أقدم العصور . ولكن يبدو أن دمياط في هذه العصور المتأخرة اتجهت إلى نسج الجريز وخاصة بعد انتشاره من الصين في أنحاء العالم وبعد أن كثر إنتاجه بالشام. ذات المصنلات التجارية الدائمة مع دمياط . وقد انتهى الأمر كما نرى اليوم إلى قيام مصانع ينك مصر الجلدينة التابعة لشركة مصر لنسج الحرير .

وقد كانت تقوم في دمياط في العصور القديمة صناعات أخرى غير النسيج أهمها عصر السمسم وصناعة الأكياب، وصيد الأسماك والطيور ، هذا عدا الصناعات المنزلية المختلفة كالنجارة والحداة والصناعات الجلدية . . الخ .



صيد السمك بشواطئ دمياط

وقد اتجه سكان دمياط أخيراً - بعد القضاء على تجارة المدينة الخارجية - إلى العناية بهذه الصناعات حتى عمموها وأتقنوها وبزوا فيها الصناع الأوربيين ، فغدت دمياط أهم مدن القطر جميعاً في إنتاج الأثاث والأحذية والجبين ، وكان لوفرة إنتاجها في هذه الصناعات جميعاً أثر كبير في إنقاص كميات الوارد منها إلى المملكة المصرية ، بل إن مصر تصدر الآن كميات كبيرة مما تنتجه دمياط من هذه السلع إلى الخارج .

وإن ننسى لاننسى أخيراً صناعة ضرب الأرز ، فهي صناعة قديمة بدمياط وقد ساعد على وجودها صلاحية الأراضي المجاورة للمدينة لإنتاج هذا النبات وقد كان الأرز دائماً من أهم صادرات دمياط إلى الخارج .

وبعد فهذه صورة سريعة لتاريخ دمياط من أقدم العصور حتى الآن - سياسياً واقتصادياً- ، أرجو أن أكون قد وفقت في تقديمها وإيضاحها ، كما أرجو أن يوفقني الله سبحانه وتعالى إلى استكمال ألوانها وإبرازها للناس أتم وأوفى وأوضح مما هي عليه هنا في فرصة قريبة إن شاء الله .



الصفحات

الفهرس

| | |
|---------|---|
| ٨ | دمياط في العصور القديمة |
| | دمياط في العصر العربي |
| ٩ - ١٠ | الفتح العربي |
| ١٠ - ١٢ | في عصر الامارة |
| ١٣ - ١٧ | في العصر الفاطمي |
| | في العصر الايوبي |
| ١٧ - ١٩ | ١- في عصر صلاح الدين |
| ٢٠ - ٢٦ | ٢- في عهد الملك الكامل محمد |
| ٢٧ - ٣٩ | ٣- في عهد الملك نجم الدين أيوب |
| | في العصر المملوكي |
| ٤٠ | ١- تخريب دمياط القديمة |
| ٤٠ | ٢- قيام دمياط الجديدة |
| ٤١ | ٣- في عهد المعز أيك والمظفر قطز |
| ٤١ - ٤٢ | ٤- في عهد الظاهر بيبرس |
| ٤٣ - ٤٤ | ٥- في أواخر القرن السابع الهجري (الشيخ فاتح الأسمر) |
| ٤٤ - ٤٧ | ٦- في القرن الثامن الهجري (وصف ابن بطوطة) |
| ٤٧ - ٤٨ | ٧- في القرن التاسع الهجري |
| ٤٨ - ٤٩ | ٨- زيارة المقرئزي ووصفه للمدينة |
| ٥٠ | ٩- دمياط منى السلاطين والامراء |
| ٥٠ - ٥١ | ١٠- الملك المنصور عثمان بن جقمق في منفاه بدمياط |

- ١١ - المقامة القادرية في وصف الثغر ومحاسنه ٥٣ - ٥١
- ١٢ - في عهد قايتباي ٥٤ - ٥٣
- ١٣ - دمياط نيابة ٥٥ - ٥٤
- ٤١ - في عهد قانصوه الغورى ٥٥
- دمياط في العصر العثماني ٥٦
- دمياط في عهد الحملة للفرنسية ٥٧ - ٦٠
- دمياط في عهد الاسرة المحمدية العلوية
- في عهد محمد على الكبير ٦١ - ٦٢
- في عهد عباس باشا الاول ٦٢
- في عهد اسماعيل باشا ٦٣ - ٦٢
- في عهد توفيق باشا ٦٣
- كلمة أخيرة بين الحديد والقديم ٦٤
- تاريخ المدينة الاقتصادية
- التاريخ التجارى ٦٦ - ٦٩
- التاريخ الصناعى ٦٧ - ٦٩

| | |
|---------------|----------------|
| ٢٠٠٠/٢٢٥١ | رقم الإيداع |
| 977-5250-75-7 | الترقيم الدولي |

www.alkottob.com

الناشر
مكتبة الثقافة الدينية
٥٢٦ ش بورسعيد - الظاهر
ت : ٥٩٢٢٦٢٠ - فاكس : ٥٩٣٦٢٧٧